فنون الأدب العربي

الفن التعليمي

٢

الخطب والمواعظ

يشترك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

تصدرها

دار المعارف

الخُطَبُ وَالمواعظ

فنون الأدب العربي

الفن التعليمي

٢

الخطب والمواعظ

يشترك فى وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

تصدرها
دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

ليس هذا الكتاب بحثاً فى قواعد الخطابة وأصولها، ولكنه عَرْضٌ لتاريخها وتطورها فى الأدب العربى ، منذ أن كان العربى فى مضارب الصحراء يقف على نشز من الأرض ، أو على ظهر راحلة فيلقى على مسامع القوم ما يريد من القول ينافرهم تارة ، أو يحضهم على قتال ، أو يريدهم على صلح ، أو يقف فى خيطبة أو إملاك ، من ناحية الزوج أو الزوجة ، يَعُدُّ فضائل نفسه ، ومفاخر حسبه ، ويلتمس المودّة فى الصهر ، والقوة فى النسب ، أو يدعو قومه إلى التأمل فى ملك الله والتفكر فى ملكوته ، وما يحويه من عجائب الخلق ، وبدائع الصنع — كما صنع قسُّ بن ساعدة الإيادى فى خطبته المشهورة المأثورة إلى أن اتسعت شعاب الخطابة فى عصرنا ، وأصبحت سبيل الدفاع فى ساحة القضاء ، وسبب الاتهام أمام النيابة ، وطريق المحاجّة فى السياسة ، وتوضيح البرامج فى الحياة الديموقراطية ، وعدة الأحزاب فى النضال ، وأداة الإصلاح فى المجتمع ، وميدان التكريم فى

المحافل ، ولسان العزاء فى المآتم ، وآية الرشد والهداية فى الدين والوعظ .

ولم نشأ أن نؤرخ للخطابة فى هذا الكتاب على طريقة العصور ، بعداً عن التقسيم الزمنى ، والترتيب على تتابع القرون ، ورغبةً أن تكون هذه السلسلة فى مجموعها تاريخاً للنوع الأدبى ومتابعةً لتطوره ، وملاحظةً دقيقة لما جد فيه أو طرأ عليه أو تغير منه ، لا تسجيلا زمانيا للعصور متوالية ، والقرون متتالية . فإن التأريخ الزمانى يقطع خيط الموضوع الواحد ، ويمزق أوصاله ، أما التاريخ الموضوعى فإنه يعالج المسألة معالجة واحدة موصولة الحلقات ، ويعرضها منذ النشأة حتى الغاية التى انتهت إليها ، والمدى الذى بلغته ، ويصورها فى جملتها فى مبحث واحد متماسك الأجزاء ، فتكون الصورة موصولة الأطراف ، محبوكة الأوصال .

ونحن هنا مقيدون بالمنهج العام لهذه السلسلة وهو التأريخ لفنون الأدب العربى ، ولكننا اضطررنا إلى بعض النظرات المقارنة فى الخطابة عند الغربيين ، وذكرنا من الأمثلة ما لا يعد خروجاً على المنهج ، ولكن يعد توضيحاً له واستكمالا لأسبابه ، حتى تكون الدراسة على إيجازها أكثر وفاء للغرض الذى نقصده ، وأتم أداء للصورة التى نريدها .

ولما كانت الخطابة موهبة لا تعلم بالقواعد ، ولا تنال بالأصول والنظريات أكثر مما تدرك بالفطرة المواتية التى ينميها البصر بأساليب البلغاء ، وطرق الأبيناء ، ويقويها التمرس بكلام اللسن المقاول ، ويغذيها الفيض الغزير من متخير الخطب ، فقد حرصنا أن تكون النماذج المسوقة لأنواع الخطب العربية على مر العصور مما

يكون أصدق دلالة على القضايا التى نعالجها من ناحية ، وأكثرَ إمداداً للفن البيانى من ناحية أخرى .

ولعلنا بهذا نكون قد جمعنا بين التأريخ الأدبى وبين البلاغة العملية التى نريدها للشاب العربى حين يتكلم ، فيصيب مرامى الكلام ، كما يصيب الرامى مواقع السهام . . .

محمد عبد الغنى حسن

الفصل الأول

الخطابة

تصور القدماء والعرب للخطابة

هل الخطابة ضرورية؟ وإذا كانت فنّاً أدبياً فهل يقصد بها الفن لنفسه أم تقصد لما يرجى لها من نفع ؟ وإذا اندفعت الفنية الخطابية عند الأديب فهل لها أن تبقى على المقاييس الخلقية التى وضعها الأخلاقيون ، أم لها أن تنطلق من هذه القيود لتمضى فى طريق الفن إلى الغاية بغض النظر عن اعتبارات الخلق وقيم السلوك؟

لقد اتخذ السوفسطائيون الخطابة — قبل تقنين الفلسفة — وسيلة إلى نشر المعارف النسبية ، لأن المعارف والحقائق العلمية الثابتة لا وجود لها فى عالم متغير كل لحظة ، ومن هنا نادوا بمبدأ المنفعة لا مبدأ الحقيقة ما دامت هذه الأخيرة مطلباً يدنو من المحال . ومن هنا اعتمدوا على الخطابة والمقدرة الكلامية والقوة البيانية أكثر من اعتمادهم على الدليل والمنطق والبرهنة . فكل كلام مزوق عندهم ، وكل عبارات منمقة فى رأيهم هو الطريق لكسب المنفعة ، أما البحث وراء حقائق الأشياء فعبث باطل ، ووقت ضائع ما دامت لا توجد هناك حقائق ثابتة .

وعلى هذا الأساس انتشر خطباء السوفسطائيين فى بلاد اليونان ينشرون فيها هذه الآراء الخطيرة ، ويخطبون فى الشباب خطباً كان لا بد لها من زمام يكبح جماحها ، ولقد ظهر هذا الزمام فيما تناول به سقراط وأفلاطون وأرسطو موضوع الخطابة بما يغير ذلك النظر القديم للأشياء ، وبما يصد من تيار السفسطة الجارف الذى كاد يودى بكثير من القيم وقواعد الأخلاق .

ولقد كانت الخطابة عند السوفسطائيين عملية تجريبية ، فلم يلجأوا فيها إلى النظريات والتعريفات والرسوم والحدود والتقسيمات ، بل تناولوها بالعمل وملأوا بها محافل اليونان، وغزوا بها الجماهير . إلى أن جاء الثلاثة الفلاسفة الكبار ، فنقلوها من ميدان العملية إلى ساحة النظرية ، فتحدث عنها سقراط ، ووضع حدوداً لترتيبها ، ورسم خطة لهيكلها ، وأقامها على الجدل ، وبناها على التركيب والتحليل النفسيين ، وشاكل بين طبقات الرجال وبين الخطب التى تناسب كل طبقة ، وفرض على الخطيب أن يدرس الفروق النفسية ، بل يدرس نفسه ليعرف كيف يتخير الكلام المناسب فى اللحظة المناسبة ، وكيف يجب عليه أن يسكت حين يدعوه المقام إلى السكوت ، وكيف يجب أن ينفعل حين يقتضى الموقف الانفعال .

ولقد كتب أفلاطون فى الخطابة فجعلها من كمالات النفس ، وإن كان الكمال عنده ظاهرياً غير حقيقى ولا ضرورى ، لأن الكمال النفسى الحقيقى عنده هو كمال طريقة السياسة ، فإذا أعوزت السياسة امرأ لجأ إلى البلاغة والبيان الممثلين فى الخطابة ليكمل بها نفسه .

ثم جاء أرسطو فكتب فى الخطابة كتاباً يعد أوسع دستور لها فى القديم ، فلم يكتف بخطرات سقراط ، ولا باللمع البيانية عند أفلاطون ، ولكنه وضع من القواعد والأصول العامة للخطابة ما يعد به فارس هذه الحلبة .

وإذا صح ما رواه الجاحظ من أن أرسطو « كان بكىء اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ، ومعانيه وخصائصه » وما ذكره مولنتدورف من افتراضه ضعف المقدرة الخطابية عنده ، فإن ذلك لا يزيدنا — على غرابته — إلا إيماناً بأن الفن شىء ووضع القواعد والأصول له شىء آخر . فقد وضع الخليل بن أحمد علم العروض ولكنه كان أبعد ما يكون عن الشاعر بالمعنى الفنى للكلمة .

وإذا كانت الخطابة قد اتجهت عند السوفسطائيين إلى كسب المنفعة ، فإنها كانت عند أفلاطون وسيلة لتقرير الأخلاق وغرس أصولها فى النفوس ، ولهذا لم يجعل عمادها قوة العارضة وقوة اللدد وقدرة البيان فحسب ، بل جعل دعامتها قوة الفضائل النفسية التى تهدف إلى السعادة والخير .

وعلى الرغم من أن أرسطو حاول أن يفصل بين الخطابة والخلق ليجعل من الأولى مجالا مستقلا للإصلاح ، فإنه يجعل من الخطب الاستشارية ميداناً للنصح والتحذير ، وُصُولاً بالناس إلى السعادة وإلى الحياة الهادئة الآمنة . وواجب الخطيب عنده هنا أن يعرف السعادة ومصادرها ومظاهرها ومقوماتها ومنغصاتها حتى يستطيع أن يقنع سامعيه وأن يستميلهم إلى ما يريد .

والآن نسأل : هل نظر العرب إلى الخطابة هذه النظرة النظرية ؟ وهل تكلموا فى ضرورتها وفنيتها ومنفعتها نظراً ، قبل أن يمارسوها على المنابر عملا ؟

لقد كان العرب فى الجاهلية خطباء بالفطرة ، أبيناء بالطبع ، فما هى إلا أن يقوم داع من دواعى الخطابة فيلبوه ، كالمفاخرة والوفود ، وإصلاح ذات البين ، والوصايا والزواج . فالخطابة عندهم كانت ضرورة من ضرورات مجتمعهم . ولما جاء الإسلام سارت الخطابة فى ركاب الدعوة الجديدة ، تخدم أغراضها وتنادى الناس إلى الدخول فيها . فلما اصطرع المسلمون ذلك الصراع العنيف بين حزبى العلويين والأمويين اتخذت الخطابة عدة فى ذلك الصراع ، وقامت بجانب السيف تسانده وتعاضده .

إلا أنه بجانب ذلك كانت خطب الجمع ترنُّ فى آذان الجماعة الإسلامية مرة كل أسبوع ، ففى كل مسجد خطبة ، وعلى كل منبر خطيب . والجماهير تهوى هوياً إلى هذه المنابر التى كانت — ولا تزال — خطبة الجمعة فيها قبل الصلاة ، حتى لا يجد المصلون سبباً إلى التسلل أو التخلص من سماعها . ولم تتم صلاة الجمعة إلا بسماع خطبتها . ومن هنا كان تقدير الإسلام للخطابة الدينية تقديراً مبنياً على الوجوب والتحتيم .

وربأ الإسلام بخطبة الجمعة أن تكون وعظاً معاداً مكروراً ، ونغمة رتيبة ، فجعلها تدور حول ما يهم الجماعة الإسلامية ويشغل بالها من الأمور المستحدثة والمسائل الجارية ، والقضايا التى تتصل بمصالحهم .

ولهذا كانت خطب الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من خطباء الأمويين والعباسيين ميداناً لمعالجة القضايا الإسلامية القائمة .

وقد جرت خطب صدر الإسلام والعصر الأموى على مجرى من البلاغة والبيان، وقوة العبارة ، ومتانة السبك، والدلالة على المعنى ، مجرى لم يرجعوا فيه إلى قاعدة مكتوبة ، أو قانون بيانى مرسوم . فهم يعرفون مواقع القول ، ومرامى الكلام، وإصابة السهام ، على هدى من فطرهم ، وكان لأسلوب القرآن والحديث النبوى أثر كبير حاكوه وجروا على مثاله .

وأول من التفت إلى الخطابة العربية فكتب عنها ووصف مقوماتها ، وذكر بزة الخطباء ولبستهم ووقفتهم واستعمالهم المخاصر والعصى والقسى للاتكاء عليها ، وعيوبهم الخلقية والبيانية ، ومواقفهم ، وصفات الإجادة فيهم ، وشروط البلاغة عندهم ، وتقاسيم الخطب بداية وختاماً ، وإيجازاً وتطويلا ، واستشهاداً بالقرآن ، وتمثلا بالشعر وغير ذلك من عشرات المسائل — أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » . وهو أول كتاب يعالج الخطابة فى الأدب العربى ، إلا أنها معالجة غير مستقلة ولا قائمة بذاتها ، وإنما هى مسائل منثورة متفرقة هنا وهناك فى خلال هذا الكتاب الضخم الذى يعالج البيان العربى جملة بما فيه من بلاغة وفصاحة ، كما يعالج فنوناً من القول منها الخطابة والشعر والرجز والقصص وغيرها .

والحق أن كتابة الجاحظ عن الخطابة لم تعد أن تكون أخباراً عنها وعن الخطباء ، ونتفاً عن هيئات الخطباء وإشاراتهم وعيوبهم ، وذكراً لصحيفة بشر بن المعتمر حين مر برجل يعلم الفتيان الخطابة فصرفهم عنه إلى نفسه

ودفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنسيقه . وهى فى الحق ليست دستوراً للخطابة البليغة وحدها ، وإنما هى دستور للكلام البليغ على وجه العموم .

ولقد جاء بعد الجاحظ بقرابة نصف قرن من الزمان ناقد بيانى تكلم عن الخطابة فى فصل من فصول كتابه المسمى « نقد النثر » . والحق أن قدامة ابن جعفر صاحب هذا الكتاب لم يأت بجديد فيما كتبه عن الخطابة ، وأغلب الظن أنه لم يستفد من كتاب أرسطو الذى كان قد ترجم قبل ذلك بزمن غير قصير .

ومر على الأدب العربى زمن طويل لم تعالج فيه الخطابة معالجة موضوعية ، ولم يهتم أحد بكتاب « الخطابة » الذى لخصه وترجمه فيلسوفان : أحدهما من أهل المشرق وهو ابن سينا ، والآخر من أهل المغرب وهو ابن رشد ، ولم نظفر فى خلال ألف عام إلا بكتاب يجمع خطب«ابن نباتة الفارقى» من خطباء القرن الرابع الهجرى ، وقد قصد منه أن يجعله نماذج عملية للفن الخطابى ، وإن كان لم يحدثنا عن أدواتها ، أو على الأقل عن عيوبها ، كما فعل أصحاب « البيان والتبيين » و « نقد النثر » و « العقد الفريد » من قبله .

وجاء القرن العشرون الميلادى فاتجهت الأنظار إلى الكتابة فى الفن الخطابى بما يلائم التطور الأدبى الذى بلغته الآداب العربية فى عصرنا هذا ، وظهرت بضعة من الكتب أقدمها كتاب للأب لويس شيخو اليسوعى ، عالج فيه الموضوع على طريقة السؤال والجواب ، واهتم بالأدلة والمواضع الجدلية والأقيسة ، فكان فى الحق أول كتاب فى الأدب العربى يعالج الموضوع معالجة مستقلة .

ولن تعين دراسة علم الخطابة وقواعدها وأصولها على تكوين خطباء تسعى إليهم المنابر ، إلا إذا استطاعت دراسة علم العروض والقافية أن تخرج شاعراً تهفو إلى أغاريده القلوب . . . فلا بد من الموهبة والاستعداد الفطرى اللذين تهذبهما الدراسة ، وتضبطهما الأصول وتخرجهما على أحسن الوجوه .

الفصل الثانى

الخطيب

صفات الخطيب

نستطيع أن نجمع من استقرائنا لأخبار الخطباء على توالى العصور مجموعة من الصفات الحسية والمعنوية التى يمتاز بها خطيب من خطيب ، والتى تعين فى مجموعها على تكوين ذلك الضرب من الخطباء الذى تصل عباراته إلى قلوب السامعين وعقولهم فتفعل بها ما لا يفعل السحر .

ولا شك أن لشكل الخطيب ومظهره الخارجى وحلاوة صوته وجهارته وحسن إلقائه ونبل حركاته ووقار سمته أثراً كبيراً فى تأثيره فى سامعيه ، ويحدثنا « دى جرانج » مؤرخ الأدب الفرنسى عن المزايا الطبيعية الجسدية التى أعدت «ميرابو» لأن يكون خطيباً ممتازاً على الرغم من قبح خلقته . فإن كتفيه القويتين ، ونظراته الخاطفة ، وصوته القوى المرن ، وتحكمه فى أعصابه ، مما أعانه فى كثير من المواقف . كما امتاز « غامبتا » الخطيب السياسى المشهور بحسن سمته ، وجهارة صوته ، ومحمل رأسه فوق جسده فى ثبات ، كأنه يشير إلى اعتزازه أمام الخطوب .

وللخطباء من العرب فى إشاراتهم وحركاتهم على المنابر مذاهب ، فكان أبو شمر إذا خطب لم يحرك يداً ولا منكباً ، ولم يقلب عينيه ، ولم يحرك رأسه ، حتى كأنما كلامه يخرج من صدع صخرة . ورأيه أن صاحب المنطق لا ينبغى له أن يستعين عليه بغيره من وسائل الإشارة والحركة . وما زال كذلك حتى أقنعه إبراهيم النظام بضرورة ذلك للخطيب . وكان أيوب بن جعفر العباسى حاضراً ذلك

فتحول منذ ذلك اليوم من عدم الحركة إلى الاستعانة على الخطابة بالحركات والإشارات .

وقد استعان الخطباء والمتكلمون على تصريف وجوه القول والتعبير عن المعانى بالإشارة بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم ، كأن جوارحهم تعين اللسان على البيان ، فإذا أشاروا بالعصى فى أثناء خطبهم فكأنهم قد وصلوا بأيديهم أيدياً أخر ، وإلى هذا يشير الشاعر بقوله :

يصيبون فصل القول فى كل خطبة إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصر

وكان من تمام سمت الخطيب عند العرب أن يلبس الملحفة أو الجبة أو القميص ، وقد يستغنى عنها ، أما الذى لا بد منه فالعمة فوق رأسه والمخصرة فى يده ، وهى عصا قصيرة أو قضيب قد يتخذ من غرائب الخشب وكرائم العيدان كالنبع والآبنوس . وقد يتكىء الخطيب على طرف القوس ، يخدُّ بها وجه الأرض إذا حمى أمامه المجال ، واتسع المقال .

واشترطوا فى الخطيب أن يخطب قائماً فى حالات الخطب كلها ، وخاصة فى الصلح والحمالة والمحالفة ، ليكون ذلك أوكد للعهد ، وأبلغ للقصد . أما فى خطب الزواج فقد اشترطوا القعود . والخطيبُ الخطيبُ هو الذى لا يفترق شأنه فى حالى القعود والقيام ، كالإمام على الذى قال فيه الحارث الأعور : والله لقد رأيت عليا ، وإنه ليخطب قاعداً كقائم ، ومحارباً كمسالم .

رباطة الجأش واليقظة

ولا شك أن الخطابة موقف قد يزل فيه الرجل إذا لم يكن ضليعاً به ولا قديراً عليه . ولقد حدثتنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء تهيبوا المنابر ، حتى لقد صرح الخليفة عبد الملك بن مروان بأن الذى عجل عليه شيبه هو الوقوف على

المنابر مرة أو مرتين كل جمعة . ولهذا اشترطوا فى الخطيب أن يكون رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، ثابت النفس حتى لا تستولى عليه الحيرة ويتملكه الدهش ، فيورثاه الحصر وحبسة اللسان ، وهما سبب الإرتاج والإجبال . وقد نقل لنا أبو هلال العسكرى صاحب « الصناعتين » عن حكيم الهند بعض آلات البلاغة عند الخطيب ، فكان من أولها رباطة الجأش وسكون الجوارح .

وما أكثر ما تعين رباطة الجأش عند الخطيب على تنبه لما يدور حوله ، ويقظته لما يجرى بين السامعين ، مما يجعله على أهبة الاستعداد لأن يلبس للأحوال لبوسها ، وأن يأخذ لها عددها . فلا يباغت بحركة أو إشارة ، أو فضلة من القول أو الفعل . ولقد جمع عمر بن الخطاب إلى آلة البلاغة آلة التنبه ، فقد كان وهو خليفة يخطب على المنبر فى يوم جمعة ، فدخل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقال عمر : ما بال أقوام يسمعون الأذان ويتأخرون ؟ فقال عثمان : والله ما تأخرت إلا ريثما توضأت . فقال عمر : وهذا أيضاً . . . أما سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أتى الجمعة فليغتسل » !؟

سرعة البديهة والتذكر

إن الخطيب واحد أمام كثرة ، وفرد أمام جماعة ، وقد تأخذه هذه الفكرة فتقطع عليه خيط تفكيره ، وتحبس سيل تعبيره ، وقد يصادف من هذا الموقف الرائع ، أو الجمع الحاشد بما لا بد فيه من سرعة الخاطر فوق سكون الجارحة ، حتى يخلص من المآزق إذا عرضت له ، ويتخلى عن الحرج إذا وقع فيه . وإلا خذل فى مقام ضيق لا يفرجه إلا البديهة الحاضرة ، والخاطر المواتى السريع . وقد لا يكون الحرج آتياً من الحصر أو الإرتاج ، فقد يكون فى الموقف نفسه ، أو قد يجدّ فيه ما يجدُ الخطيب نفسه معه مضطراً إلى إحدى اثنتين : فإما أن يتغلب

على الموقف أو الطارئ بالرد المفحم ، والجواب المقنع ، وإما أن يستسلم فتخذله العبارة ، ولا يساعفه الفكر فينهزم على المنبر ، وخاصة إذا كان له خصوم، كخطباء التقاضى والخطباء السياسيين .

ولقد روى لنا تاريخ الخطابة العربية أن بعض خلفاء العباسيين ارتقى المنبر ليخطب ، فسقطت على وجهه ذبابة ، فطردها ، فرجعت ثانية فطردها ! إلى أن ضايقه ذلك بما انقطع معه خيط تفكيره وتعبيره ، فأدركه الحصر والإرتاج ، فلم يجد غير آية من القرآن يستنقذ بها الموقف ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم . « يأيها الناس ضربَ مثلٌ فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضَعفَ الطالب والمطلوب » ثم نزل . فاستحسن الناس منه ذلك التخلص .

على أن الخطيب قد يؤخذ بهيبة المقام فيخطىء فى حادثة أو تاريخ أو عدد معين ، وقد يتصدى له من السامعين من يصلح له خطأه ، فإذا لم يخرج من هذا المأزق بما تسعفه به بادرة حاضرة فإنه لا شك صائر إلى الهزيمة على المنبر ، وهى هزيمة يرجى دائماً السلامة منها ، وعدم الصيرورة إليها ! وممن أسعفتهم البديهة بالخلاص من مأزق فى الخطابة وكيع بن أبى سود التميمى أحدُ أبطال المسلمين فى فتوح بخارى مع قتيبة بن مسلم ، فقد كان يخطب مرة فى جند العرب بخراسان فقال : إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أشهر . فقال له أحد السامعين : إنها ستة أيام ! فقال : وأبيك لقد قلتُها وإنى لأستقلها ! !

وهكذا خرج من الورطة بنكتة لطيفة تدل على عجيب صنع الله وبديع خلقه ، فإن مثل خلق السموات والأرض ليحتاج إلى الشهور والأعوام .

ويحدثنا تاريخ الخطابة أيضاً بحديث ذلك الخطيب الإيادى عدى بن زياد الذى صعد المنبر فقال : أقول لكم كما قال العبد الصالح لقومه : « ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » ، فقال له أحد السامعين : ليس هذا من قول

العبد الصالح وإنما هو من قول فرعون ! فقال : من قاله فقد أحسن !

فهو يخلص من الخطأ بطريقة سريعة لطيفة وهى أنه لا يعنيه أن يكون القائل صالحاً أخا ثمود ، أو فرعون ذا الأوتاد ، وإنما يعنيه أن ما قيل هو أكثر انطباقاً على أحوالهم ، وأصدق دلالة على موقفه منهم .

ولعل أذكى ما يحضرنا الآن من بدائه الخطباء فى ضيق المواقف هو ما حدث لقتيبة بن مسلم البطل الفاتح وهو على المنبر وما حدث منه . فقد كان يخطب مرة على منبر خراسان ، وهو موغل فى فتوحاته هناك ، فسقط القضيب من يده ، فتفاءل له عدوه بالشر ، واغتم له الصديق ، فعرف ذلك قتيبة ، فأخذ القضيب من على الأرض وقال : ليس الأمر على ما ظن العدو ، وخاف الصديق ، ولكنه كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عينا بالإياب المسافر !

ولعل من البدائه القوية الحاضرة ما خطب به الحجاج بن يوسف ردا على من أرجفوا بموته فى مرض له ، فقد أراد بألا يسكت على أراجيفهم ، وألا يبدى الهلع من حادث الموت الذى أرجفوا به والذى يودونه له ، فتحامل والمرض شديد الوطأة عليه ، وصعد المنبر فقال : « إن طائفة من أهل العراق ، أهل الشقاق والنفاق ، نزغ الشيطان بينهم، فقالوا : مات الحجاج ،ومات الحجاج فَمَهْ ! وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت؟ والله ما يسرنى ألا أموت ، وأن لى الدنيا وما فيها ، وما رأيتُ الله رضى بالتخليد إلا لأهون خلقه عليه : إبليس ، قال : أنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين ، ولقد دعا الله العبد الصالح ، فقال : « رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى » ، فأعطاه ذلك إلا البقاء . فما عسى أن يكون أيها الرجل ؟ وكلكم ذلك الرجل ، كأنى والله بكل حى منكم ميتاً ، وبكل رطب يابساً ، ونُقِل فى ثياب أكفانه إلى ثلاث أذرع طولا فى ذراع

عرضاً ، وأكلت الأرض لحمه ، ومصت صديده ، وانصرف الحبيب من ولده يقسمُ الحبيبَ من ماله . . إن الذين يعقلون يعلمون ما أقول » ثم نزل »

ولقد كان من أسرع البدائه فى الخطابة المعاصرة بديهة لويد جورج الخطيب الإنجليزى المشهور ، فقد حدثوا أنه كان يخطب مرة فى الحكم الذاتى ، فقال : سنعطى الحكم الذاتى لكندا ، وسنعطيه لإيرلندة ، وسنعطيه لـ . . . ولم يكد يكملها حتى قال رجل من السامعين : لجهنم ! فرد عليه لويد جورج قائلا : هو ذاك ، يعجبنى أن يتذكر كل إنسان وطنه !

ومما اشترطوه فى الخطيب أن يكون سريع التذكر ، وأن يكون ذكوراً لأول خطبته وللذى بنى عليه أمره ، فإذا شغب عليه شاغب ، أو حدث من الأمور ما يضطر به إلى قطع كلامه ، فإنه يستطيع بماله من قوة التذكر أن يصل آخر الكلام بأوله ، وخوالفه بسوالفه ، حتى لا تنقطع نياط فكرته ، وحتى لا يكون أحد كلاميه أجود من الآخر . ومن الخطباء العرب الذين امتازوا بقوة التذكر خالد ابن صفوان ، فقد قالوا إنه كان أذكر الناس لأول كلامه ، وأحفظهم لكل شىء سلف من منطقه .

ومفهوم أن شرط التذكر لا يكون إلا حين ارتجال الكلام وابتداء الخطب ، أو حين الإلقاء عن كلام محفوظ ، أما حين الإعداد والإلقاء من ورق فإن الذاكرة هنا لا يقوم مقامها إلا حضور البديهة ، استعداداً لما قد يستحدث من الأمور

ثقافة الخطيب

يختلفُ القدرُ المطلوب من ثقافة الخطيب بحسب نوع الخطبة وثقافة الذين يسمعونه ، فخطبة الزواج مثلا لا تحتاج إلى قدر من الثقافة قدر ما تحتاج إليه خطبة سياسية ، أو خطبة قضائية مثلا . إلا أن الخطيب على كل حال يجب أن

يكون عنده من اتساع الثقافة وامتداد آفاق المعرفة ما يمكنه من إجادة الموضوع الذي يخطب فيه ، حتى يضاف عنصر المعرفة إلى مجموع العناصر التى تتكون منها شخصية الخطيب ، والتى يؤثر مجموعها فى نفسية السامعين فيستولى الخطيب على مشاعرهم وعقولهم .

وعلى قدر البيئة التى يكون فيها الخطيب تكون ثقافته ، فإن العرب لم يحتاجوا فى جاهليتهم إلى ثقافة واسعة فى الخطيب إلا بالقدر الذى يكون له به التأثير فيهم ، فكما اشترطوا فى الشاعر أن يعرف الأنساب والأيام والأخبار حتى يكون على علم بذلك حين يمدح أو يهجو أو يفتخر ، فكذلك كان مفروضاً فى الخطيب الجاهلى أن يعرف القبائل والأنساب والوقائع والتاريخ حتى تجتمع له من ذلك مادة الخطبة حين ينافر ، أو يفاخر ، أو يهادن ، أو يحرض قومه على قتال ، أو يدافع عن أحساب قومه . كما حدث بين طريف بن العاص والحارث بن ذبيان حين تفاخرا عند بعض أقيال العرب .

على أن مجتمعاً كالمجتمع الإغريقى فى عهد الفلاسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو كان يتطلب من الخطيب قدراً عالياً من الثقافة والمعارف العامة ، حتى لقد شرط أرسطو فى كتاب « الخطابة » أن يلم الخطيب بموارد الدولة ومصارفها ، وما عملته الشعوب فى سبيل إنماء ثرواتها ، كما اشترط فيه العلم بأمور الذياد عن الوطن ، ووسائل التغذية ، ونظم الحكم ، وأصول الأخلاق ، والأدلة وغيرها مما كانت تقتضيه طبيعة المجتمعات الإغريقية فى القرن الرابع قبل الميلاد .

ولا يزال تاريخ الخطابة يذكر لميرابو اتساع دائرة معارفه إلى حد أدهش جميع مترجميه . وليس المقصود من ثقافة الخطيب إلا ذلك القدر الذى يسعفه حين تكون المعارف وسيلة إلى إنارة الظلام ، وتبديد الأوهام ، وجلاء الأفهام . والخطيب الناجح يستطيع حتى فى خطب المدح والتكريم أن يطوف فى عالم المعرفة بما يجعل لخطبته وقعاً فى النفوس ، بدلا من أن تكون عبارات جوفاء ، يكاد ينقلب فيها المدح إلى رياء . . .

دراسة الخطيب لنفسية السامعين

يستطيع الخطيب متى عرف نفسية السامعين أن يضرب على الوتر الحساس الذى يهزهم ، وأن يصل إلى مواضع التأثير من نفوسهم ، وأن يحملهم على الهدف الذى ينشده فى غير عسرة عليه ولا جماح منهم . إنه يستطيع متى كان طبًّا بالنفوس أن يلعب بمشاعرهم ، وأن يعرف أهدى السبل إلى إقناعهم أو استمالتهم ، وأن يتخير الكلمة الملائمة لإثارتهم ، أو يبرز الحدث المثير لعواطفهم ، أو يطامن من غرورهم وغلوائهم ، ويسكن من ثائرة نفوسهم .

ولعل أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان نفسياً بارعاً حين علم عزم الأنصار على أن يولوا سعد بن عبادة خليفة لرسول الله بعد أن لحق بربه ، فقد كانوا يظنون فى أنفسهم فضل حماية الرسول وإعزاز دين الله ، والجهاد لأعدائه ، ناسين — أو متناسين — فضل المهاجرين من قريش ، فدخل عليهم أبو بكر وهم مجتمعون تحت سقيفة بنى ساعدة فخطب فيهم قائلا : « أيها الناس ! نحن المهاجرون ، أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثر الناس ولادةً فى العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم . أسلمنا قبلكم ، وقُدِّمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان » فنحن المهاجرون ، وأنتم الأنصار ، إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً ! فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله » .

نعم ! كان الصدّيق طبًّا بالنفوس يومئذاك ، فلم ينكر للأنصار فضلا ولم ينقصهم فضيلة ، بل ذكرهم بالإخاء الإسلامى بينهما ، وذكرهم بتقديم القرآن

لهم عليهم ، ودعا لهم بحسن الجزاء من الله على ما قدموا من خير ، ثم هددهم – فى رفق وتلطف – بأن العرب لا تدين إلا لقريش قوم المهاجرين .

ولما قام عدى بن حاتم الطائى يستنفر قومه لنصرة الإمام على علم أن طريق الآخرة وحده لا يكفى لاستنفارهم وحضهم على القتال فى سبيل الإمام ، فلجأ إلى طريق الدنيا ومغانمها يغريهم بها ، فقال فيهم من خطبة له : « وقد كنتم تقاتلون فى الجاهلية على الدنيا ، فقاتلوا فى الإسلام على الآخرة ، فإن أردتم الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ، وأنا أدعوكم إلى الدنيا والآخرة . . . وقد ضمنت عنكم الوفاء . . . وقد أظلكم علىّ والناس معه من المهاجرين والبدريين والأنصار ، فكونوا أكثرهم عدداً ، فإن هذا سبيل للحى فيه الغنى والسرور ، وللقتيل فيه الحياة والرزق » (١)

ولقد كان معاوية بن أبى سفيان من أخبر خطباء العرب بالنفسيات التى يخطب فيها ، وكان له فى استلال سخائم النفوس طريقة بارعة يترضى بها الغضاب ، ويهدىء بها الثورات ، حتى تلين له مقادة الرجال . فحينما بايع لابنه يزيد وكتب ببيعته إلى الآفاق ، أبى مروان بن الحكم عامله على المدينة أن يقر بالبيعة ، فعزله معاوية وولى مكانه سعيد بن العاص ، فجاء مروان مغاضباً من المدينة إلى دمشق ودخل على معاوية يخطب هادراً كالسيل ويهدد ويتوعد ، ويقول فيما يقول : « فأقم الأمر يا ابن أبى سفيان ، واعدل عن تأميرك الصبيان ، واعلم أن لك فى قومك نظراء ، وأن لهم على مناوأتك وزراء » فغضب معاوية من هذا الكلام غضباً شديداً ، ولكنه كظم غيظه ، وكتم غضبه ، وأخذ بيد مروان أمام الجمع الحاشد وهو يخطب قائلا : « إن الله قد جعل لكل شىء أصلا ، وجعل لكل خير أهلا ، ثم جعلك فى الكرم منى محتداً ، والعزيز منى والداً ، اخترت من قروم قادة ، ثم استللت سيد سادة ، فأنت ابن ينابيع الكرم . . .

(١) فى هذا إشارة إلى قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

فرحباً بك وأهلا من ابن عم ! ذكرت خلفاء مفقودين ، شهداء صديقين ، كانوا كما نعتّ ، وكنت لهم كما ذكرت ، وقد أصبحنا فى أمور مستحيرة ، ذات وجوه مستديرة ، وبك والله يابن العم نرجو استقامة أودها ، وذلولة صعوبتها ، وسفور ظلمتها ، حتى يتطأطأ جسيمها ، ويُركب بك عظيمها ، فأنت نظير أمير المؤمنين ، وعدته فى كل شديدة وعضده ، والثانى بعد ولى عهده ! فقد وليتك قومك ، وأعظمت فى الخراج سهمك ! وأنا مجيز وفدك ، ومحسن رِفدك ، وعلى أمير المؤمنين غناك ، والنزول عند رضاك ! »

ولقد سكنت بالطبع ثائرة مروان بعد هذه الخطبة البارعة ، وبعد هذا المدح الذى خلعه الخليفة الحليم على وال ثائر ، وبعد هذا الوعد بالخلافة بعد ولى عهده يزيد ، وبعد هذا العطاء الجزل والنائل الضخم الذى أضفاه معاوية على مروان وعلى وفده وأهله الذين حضروا بباب الخليفة معه .

ولعل الحجاج كان أقدر على التخلص من أزمات النفوس حين يشتد الأمر ، فما هى إلا خطبة يلقيها ، أو كلمة يقولها حتى تهدأ النفوس . فلقد قتل عبد الله ابن الزبير بعد محاربة عنيفة ، وكان ابن الزبير محبوباً عند أهل مكة ، فارتجت أنحاؤها بالبكاء عليه لمقتله سنة ٧٣ هـ ، وفى خلال هذه المناحة المستحرّة صعد الحجاج المنبر فقال : « ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة ، حتى رغب فى الخلافة ، ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله . ولو كان شىء ما نعا للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير ، والجنة أعظمُ حرمةً من الكعبة » .

وتتجلى مقدرة الحجاج بن يوسف على دراسة النفوس والتغلغل إلى الأعماق إبان الخطبة فى خطبته بعد واقعة « دير الجماجم » التى هزم فيها ابن الأشعث سنة ٨٣ هـ بعد خروجه على الحجاج ومبايعة الجند على خلعه . فقد اجتمع حول

منبر الحجاج جمع من أهل العراق وأهل الشام ، فوجه الكلام إلى أهل العراق قائلا : « يا أهل العراق ، والكفرات بعد الفجرات ، والغدرات بعد الخترات ، والنزوات بعد النزوات ! إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم ،وإن أمنتم أرجفتم ، وإن خفتم نافقتم ، لا تذكرون حسنة ، ولا تشكرون نعمة ، هل استخفكم ناكث ؟ أو أستغواكم غاو ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم خالع إلا تبعتموه وآويتموه ، ونصرتموه وزكيتموه ؟ يا أهل العراق ! ألم تنهكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع ؟ » ثم التفت إلى أهل الشام فقال : « يا أهل الشام ! إنما أنا لكم كالظليم [1] الرامح عن فراخه ، ينفى عنها المدر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذئاب . يا أهل الشام ! أنتم الجنة [2] والرداء ، وأنتم العدة والحذاء » .

قوة الاحتجاج ومقارعة الحجة

وإذا كان الاحتجاج وقوة الحجاج واجبةً فى الكتابة عموماً فإنها فى الخطابة أوجب . فالخطيبُ قد يعرض له وهو على المنبر ما يبطل حجته أو يوهن منها ، فلا بد أن يكون على تمام الأهبة لمقارعة الحجة بالحجة ، ومقابلة الدليل بالدليل ، حتى لا يغلب على أمره فى لحظة لا تغنى فيها الروية قدر ما تسعف البديهة الحاضرة والحجة العتيدة . وقد تكون القضية التى يتكلم فيها الخطيب من الوضوح بحيث لا يحتاج معها إلى الإبانة والكشف عن وجوه الحسن فيها أو القبح بها . ولكن الخطيب البارع هو الذى يحتال بصنوف التحيل والعلل ليحسن ما ليس بحسن فى سمع سامعه ، أو ليقبح ما يتوهمه السامعون حسناً ، ليصل بهم إلى ما يريد ، وأظهر ما يكون ذلك فى خطب السياسة والدفاع والحروب . فالقائد

---

(١) الظليم : ذكر النعام . والرامح : المدافع عن فراخه .
(٢) الجنة : الوقاية .

الخطيب الحق قد يزين الموت أمام عيون جنده حتى يقدموا عليه فى غير وجل ، والسياسى الخطيب قد يحمل خصمه على قبول رأى قد لا يوافق هواه . وتلك مرتبة فى البلاغة لايسمو إليها إلاالعباقرة ـ ألسنا جميعاً نجمع على فضل المشاورة ومدحها؟ ولكن عبد الملك بن صالح ذم المشورة بأسلوب يكاد ينفرنا منها فقال : « ما استشرت أحداً إلا تكبر علىّ وتصاغرتُ له ، ودخلته العزةُ ودخلتنى الذلة ، فعليك بالاستبداد — يعنى بالرأى — فإن صاحبه جليل فى العيون ، مَهيب فى الصدور ، وإذا افتقرتَ إلى العقول حقرَتك العيون ، فتضعضع شأنك ، ورَجفت بك أركانك » .

وأيّةُ نفس لا تقدم على الموت حين تسمع « عقبة بن حديد النمرى » وهو يخطب حاضًّا الناس على لقاء الموت يوم صفين قائلا : « ألا إن مرعى الدنيا قد أصبح هشيما ، وأصبح شجرها خضيداً ، وجديدها سملا [١] ، وحلوها مر المذاق . ألا وإنى أنبئكم نبأ امرىء صادق : إنى قد سئمت الدنيا ، وعزفت نفسى عنها ، وقد كنت أتمنى الشهادة ، وأتعرض لها فى كل جيش وغارة ، فأبى الله عز وجل إلا أن يبلغنى هذا اليوم . ألا وإنى متعرض لها من ساعتى هذه ، وقد طمعتُ ألا أحرمها ، فما تنتظرون عباد الله بجهاد من عادى الله ؟ أخوفاً من الموت القادم عليكم ، الذاهب بأنفسكم لا محالة ؟ أو من ضربة كف بالسيف ؟ أتستبدلون الدنيا بالنظر فى وجه الله عز وجل ، ومرافقة النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين فى دار القرار ؟ ما هذا بالرأى السديد ! » .

ولعل أقوى ما فى حِجاج الخطباء هو ما حاجّ به الحسين عليه السلام معاوية رضى الله عنه حين بايع لابنه يزيد وغالى فى مدحه ، ووصفه بالعلم بالسنة وقراءة القرآن والحلم الذى يرجح بالصم الصّلاب . وهنا لم يطق الحسين عليه السلام صبراً

---

(١) السمل القديم من الثياب . والجمع أسمال .

فقام يخطب ويبطل الكلام بقوارع السهام قائلا لمعاوية : « . . . وفهمتُ ما ذكرته عن يزيد ، من اكتماله وسياسته لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، تريد أن توهم الناس فى يزيد ، كأنك تصف محجوباً ، أو تنعتُ غائباً ، أو تخبر عما كان مما احتويتَه بعلم خاص . . . وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه ، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المتهارشة عند التحارش ، والحمام السُبَّقَ لأترابهن ، والقينات ذوات المعازف ، وضروب الملاهى ، تجده ناصراً : ودَع عنك ما تحاول ! فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلْق بأكثر مما أنت لاقيه ... فوالله ما برحتَ تقدم باطلا فى جورْ ، وحنقاً فى ظلم ، حتى ملأت الأسقية ، وما بينك وبين الموت إلا غمضة » .

أخلاق الخطيب

لقد كان الخطيب حتى فى عصور الجاهلية الأولى هادياً ومرشداً ، وهو سيان فى الدعوة إلى الحرب أو الدعوة إلى السلم لا يخرج عن سنن الأدب الكريم ، وقد يحض الخطيب على القتل وخوض المعارك ولكنه يلتزم جادة الخلق وعفة النطق وأدب المقال ، فلا يخرجه الغضب عن طور الاعتدال ، ولا يبعد به السخط عن نهج التصون فى الكلام ، على أن أكثر الخطباء تحتم عليهم طبيعة فنهم أن يكونوا على غرار من الخلق لا يتوفر لغيرهم من الناس . وإذا كانت السياسة معروفة بالتواء القصد ، فأن أنجح الخطباء السياسيين من عرفت عنه سلامة الخلق ، واستقامة السلوك ، حتى لقد اشتهر الجنرال فوى الخطيب الفرنسى المشهور بصحة الأخلاق قدرَ اشتهاره بمقدرته الخطابية . وقد اشترط أرسطو فى الخطيب قدراً من الأخلاق يبعث الثقة فيه ويوجب الاهتمام بما يقول ، وعدّ أخلاقَ الخطيب ذاتَ أثر قوى فى إقناع سامعيه . وما أكثر ما يصح هذا فى خطباء الاجتماع وخطباء المواعظ والنصح والإرشاد ، وإلا صح فيهم قول القائل :

لا تنه عن خلق وتأتى مثلــه   عار عليك إذا فعلت عظيم

وليس بخطيب من يفقد على المنبر صوابه، فيلجأ إلى مسابة خصمه، وهى أوهى الحجج التى يلجأ إليها الضعاف الضيقو الأعطان . وقد ترك لنا الإمام على كرم الله وجهه فى ذلك أبلغ الدروس ، فقد خرج اثنان من أنصاره يسبان أهل الشام ويظهران البراءة منهما ، فنعهما من ذلك . فقالا له : ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال : بلى ، قالا : فلم منعتنا من شتمهم ؟ قال : « كرهتُ لكم أن تكونوا لعّانين شتامين ، تشتمون وتبرءون ، ولكن لو وصفتم مساوئ أعمالهم ، فقلتم : من سيرتهم كذا وكذا ،ومن أعمالهم كذا وكذا ، كان أصوب فى القول، وأبلغ فى العذر ، وقلتم مكان لعنكم إياهم ، وبراءتكم منهم : اللهم احقن دماءهم ودماءنا ، وأصلح ذات بينهم وبيننا ، واهدهم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحقَّ منهم من جهله ، ويرعوى عن الغى والعدوان منهم من لهج به، لكان أحبَّ إلىّ ، وخيراً لكم » .

فقالا : يا أمير المؤمنين ! نقبل عظتك ، ونتأدب بأدبك .

موقف الخطيب

إن موقف الخطيب ليس مما يسهل على كل نفس أن تقفه، ولا يجترئ عليه إلا متمرس به قادر عليه متثبت من نفسه ، أو غر جاهل صفيق أديم الوجه ، لا يبالى أن يدركه الحصر ، أو يقطع البهر أنفاسه .

وقد يألف بعض الخطباء المنابر وتألفهم ، ولكنهم مع ذلك لا يملكون أنفسهم مما قد يعرض للخطيب فى الموقف الحرج والمقام الضيق ، إلا أن كثرة ممارسة المنابر قد تهون على النفس عناء هذا المركب الوعر ، الذى شابت له شعرات رأس خليفة مثل عبد الملك بن مروان .

والحق – كما قال ابن مروان – أن الخطيب يعرض على الناس عقله ، فكيف لا يشيب من يتعرض لمثل هذه التجربة الخطيرة مرة فى الأسبوع على الأقل ، حين كان الخليفة يخطب بالرعية فى صلاة الجمعة ؟

والخطيب معذور حين يتهيب موقف الخطابة ، لأنه يرى نفسه فرداً قد التفت حوله جماعات ، وتحلقت بين يديه فرق ، وشخصت إليه أبصار ، وأرهفت إليه أسماع ، فكأنها تحصى عليه الخطأ . أو تعد عليه الذنوب . ولهذا كان بعض الخطباء يتغلبون على هذا الشعور بأن يتناسوا أن أمامهم جمعاً ، ويمضوا فى الكلام على غايتهم ، لا يصدهم شعور طارىء ، ولا اعتبار مفاجئ . وكثيراً ما كان ديموستين – خطيب اليونان فى القرن الرابع قبل الميلاد – يغالب شعور التهيب هذا بأن يمرن نفسه على الخطابة أمام البحر الذى تهدر أمواجه ، فيعلو صوته صوتها . . .

وكثيراً ما يعترى الخطيب من عوارض التهيب ما يعترى الخائف الوجل من سرعة النبض ، ورشح الجبين بالعرق ، وانقطاع النفس ، وخفوق القلب . ولقد حدث ذلك لصعصعة بن صوحان وهو يخطب بين يدى معاوية ، فعرق حتى سالت قطرات العرق على منابت شعره ! فقال له معاوية : بهرك القول ! فقال صعصعة : إن الجياد نضاحة بالماء ! ومهما كان فى هذا الرد من براعة وتخلص من المأزق ، وتلطف فى الجواب ، فإنه لا يخفى الحقيقة التى حاول الخطيب أن يتخلص منها .

وقد فسر لنا الخليفة عثمان بن عفان علة الإرتاج عليه فى أول خطبة له ، بأن أول كل مركب صعب ، ووعد مستمعيه – إن عاش – بأن الخطب ستأتيهم بعد ذلك على وجهها ، وسيجعل الله بعد عسر يسرا !

ومما يؤكد لنا تهيب الخطيب وفرقه حين تشخص إليه الأبصار ، وترهف نحوه الأسماع ذلك الحادث الذى وقع لروح بن حاتم حينما صعد المنبر ، فقد

ذكروا أنه حين رأى الناس شفنوا أبصارهم ، وفتحوا أسماعهم نحوه حصِرَ ، فقال : « نكسوا رءوسكم ! وغضوا أبصاركم ! فإن المنبر مركب صعب ، وإذا يَسَّر الله فَتْح قُفْل تيسر ! »

وكثيراً ما كان بعض العمال والولاة ممن لا يحسنون الخطابة ولا يجزئون فى مواقفها يكرهون كل مقام يحتاج فيه إلى خطبة ، ولو كانت خطبة الجمعة ! فلقد كان « عبد ربه اليشكرى » عاملا لعيسى بن موسى العباسى على المدائن ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأرتج عليه ، فسكت ثم قال : « والله إنى لأكون فى بيتى فتجىء على لسانى ألف كلمة ، فإذا قمت على أعوادكم هذه — يقصد أعواد المنابر — جاء الشيطان فمحاها من صدرى ! ولقد كنت وما فى الأيام يوم أحب إلىّ من يوم الجمعة ، فصرت وما فى الأيام يوم أبغض إلىّ منه ، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه ! » .

ولقد رويت فى كتب الأدب والأخبار كثير من حوادث الحصر والإرتاج لخطباء قطعت عليهم هيبة الموقف طريق القول ، وسدّت منافذ الكلام ، حتى لقد بلغت هذه المواقف مبلغ الفكاهات يتندر بها ، وحتى ليظن الاعتمال والصنعة فى بعضها ، كما ذكروا من أن مصعب بن حيان دُعى مرة ليخطب فى حفل زواج ، فأدركه الحصر ، فقال : لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله ! فقالت أم العروس : عجل الله موتك ! ألهذا دعوناك ؟ !

وقد لا نصدق أن خطيباً يدركه الرهب فلا يفرق بين ما يقال فى المآتم والأفراح ، ولكن النفس حين تضطرب يعمى عليها الصواب ، ويخفى عليها الحق فتلبسه بالباطل وهى لا تعلم ، كما حدث لعتاب بن ورقاء الرياحى حين أخذ يحث الناس على الجهاد فى خطبة له ، فقال : « هذا كما قال الله تعالى فى كتابه :

كتب القتــل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جــر الذيول !

فخلط المسكين فى رهبة المقام ، بين شعر ابن أبى ربيعة وبين كلام الله الذى لا يدانيه فى علوه كلام . . .

وقد يكون الرجل بانياً للدول يستقبل الموت فى المعارك ، ولكنه لا يستطيع أن يستقبل وجوه السامعيه فى المحافل ، لأنه يدركه من الخوف فوق المنابر ما لا يدركه فى ساحة القتال ، فتعجب كيف يتهيب الكلام من لا يتهيب مواقع السهام؟! ومن هؤلاء أبو العباس السفاح أول خلفاء العباسيين ، فإنه صعد المنبر لأول عهده بالخلافة فاستحيا ولم ينطق بكلمة ، ولم ينقذ الموقف إلا داود بن على الخطيب العباسى المفوّه ، فما كاد يرقى بعض عتبات المنبر الذى يعلوه الخليفة الحصيرحتى قال : « أيها الناس ! إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فعله ، ولأثر الفعال ، أجدى عليكم من تشقيق المقال ،وحسبكم بكتاب الله ممتثلا فيكم ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفة عليكم ، والله — قسما براً لاأريد به إلا الله — ما قام هذا المقام أحدٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق به من على بن أبى طالب ، وأمير المؤمنين هذا — يعنى السفاح — فليظن ظانكم ! وليهمس هامسكم ! » فأجزأ فى موقف عجز فيه الخليفة العباسى الأول حتى لم تهمس شفتاه بهمسة واحدة .

على أن داود بن على هذا لم يسلم من الحصر بعد الذى رأيناه من إنقاذه موقف الخليفة السفاح ، وهذا مما يؤكد لنا أن الكلام يجىء ويروح فى مواقف الخطابة ، وأن النفس قد تطلبه فيعتاص عليها ولا يطاوعها ، وقد يجىء عفواً ويفيض فيضاً ، من غير طلب له ، ولا إلحاح عليه .

فقد روى صاحب « الصناعتين » و « زهرِ الأداب » والشريف المرتضى نبأ داود بن على العباسى حين صعد المنبر مرة ، فامتنع عليه الكلام بعد أن حمد الله وصلى على نبيه ، فأراد أن يعتذر من الحصر بكلمة كانت فى ذاتها ضرباً من الكلام البليغ فقال: « أما بعد ! فقد يجد المُعسر ، ويعسر الموسر ، ويُفَلّ

الحديد ، ويقطع الكليل . وإنما الكلام بعد الإفحام ، كالإشراق بعد الظلام ، وقد يعزب البيان ، ويعقم الصواب ، وإنما اللسان ، مضغة من الإنسان ، يفتر بفتوره إذا نكل ، ويثوب بانبساطه إذا ارتجل . ألا وإننا لا ننطق بطرا ، ولا نسكت حصرا ، بل نسكت معتبرين ، وننطق مرشدين . ونحن — بعد — أمراء القول ؛ فينا وشجت أعراقه ، وعلينا عطفت أغصانه ، ولنا تهدلت ثمرته ، فنتخير منه ما احلولى وعذب ، ونطرح منه ما املولح وخبث ، ومن بعد مقامنا هذا مقام ، وبعد أيامنا أيام ، يعرف فيها فضل البيان ، وفصل الخطاب ، والله أفضل مستعان » .

ولا يحب الخطباء أن يقاطعهم الناس ، لأن فى مقاطعتهم قطعاً لسلسلة أفكارهم ، ومجالا لهرب المعانى منهم ، ومعاناة لالتماسها بالكد والإجهاد ، وكل ذلك مما يؤثر فى موقف الخطيب . ومن الخطباء من يمرون بالمقاطعة لكلامهم مر الكرام باللغو ، لا يعيرونها التفاتاً ، ولا يلقون إليها بالا ؛ ومنهم من يهتم بها ، ويعلق عليها ثم يعود إلى خطبته ليصل ما انقطع . ومن هؤلاء أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى ، فقد وقف يخطب الناس يوم جمعة ، فقال بعد الحمد والثناء : أيها الناس ! اتقوا الله . فقام إليه رجل ، فقال : أذكِّرك مَنْ ذكرتنا به يا أمير المؤمنين . فقطع أبو جعفر الخطبة ثم قال : « سمعاً سمعاً لمن فهم عن الله ، وذكِّر به ، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً ، وأن تأخذنى العزة بالإثم ، لقد ضللتُ إذن وما أنا من المهتدين . وأنت أيها القائل ! فوالله ما أردتَ بها وجه الله ، ولكنك حاولت أن يقال : قام فقال : ، فعوقب فصبر . . وأهون بها ! ويلك لو هممت (١) ؛ فاهتبلها (٢) إذ غفرتُ . وإياك وإياكم معاشر الناس أختها ! فإن

---

(١) أى لو هممت بعقابك .

(٢) اهتبلها : انتهزها واغتنمها .

الحكمة علينا نزلت، ومن عندنا فُصِّلت، فردوا الأمر إلى أهله ، توردوه موارده، وتصدروه مصادره » ثم عاد إلى ما كان فيه قبل المقاطعة من خطبة الجمعة ؛

على أن من الخطباء من يعكس القضية فلا ينتظر حتى يقاطع هو بالأسئلة من غيره ، وإنما يصب هو الأسئلة صبًّا على خصومه حتى يرهقهم ، فلا يدع لهم سبيلا إلى مقاطعته أو تقطيع أفكاره ، كما كان يفعل « چول فافر » الخطيب والمحامى الفرنسى المشهور فى القرن التاسع عشر .

عيوب الخطيب

قد يكون فى الخطيب من عيوب الخلقة ، ونقائص الصورة ما لا يؤثر فى فنه الخطابى بقليل أو كثير ، وإذا كان الشكل الجميل أرْوح للعين وأمتع للنفس ، فإن الخطيب القبيح الشكل قد يأسر ببلاغته وفصاحته ما يغطى على قبح صورته ودمامة خلقته . فقد ذكروا أن «ميرابو» خطيب الثورة الفرنسية كان قبيح الخلقة، ولكن مزاياه فى الخطابة مما اشتهر فى تاريخ الأدب الفرنسى .

وما لنا نذهب بعيداً وعندنا الأحنف بن قيس ، فقد وصفه الهيثم بن عدى قائلا : « ما رأيت خصلة تذم فى رجل إلا وقد رأيتها فيه ، كان صعل الرأس [1] ، أحجن الأنف ، أغضف الأذن ، متراكب الأسنان ، أشدق ، مائل الذقن ، ناتىء الوجنة ، باخق العين ، خفيف العارضين ، أحنف الرجلين ، ولكنه كان إذا تكلم جلىَّ عن نفسه » .

وقد يكون سقوط الأسنان آفة الخطباء ، ولكنه لا يمنعهم من الفصاحة

---

(١) الصعل : دقة الرأس ، والأحجن : مائل الأنف ، والأغضف : المسترخى الأذن ، والأشدق : الواسع الشدق . والبخق : أن تخسف العين بعد العور .

قدر ما يمنعهم من إبانة الحروف وتوضيح مخارجها . على أن سقوط الأسنان كلها أصلحُ فى الإبانة من سقوط بعضها وبقاء البعض الآخر ، فقد كان سفيان بن الأبرد القائد الأموى ساقط الأسنان جميعها ، ومع هذا كان خطيباً مبيناً .

وقد ذكر الجاحظ فى « البيان والتبيين » طائفة من عيوب النطق عند الخطيب ، مما يخرج الحروف على غير وجوهها ، ويعترض سهولة مخارجها ، وعد من ذلك اللثغة ، والحكلة (١) ، والحبسة ، واللفف ، واللجلجة ، والفأفأة ، والتمتمة . وهى عيوب قد تورث أو تكتسب ، ولكن الطب الآن خطا خطوات فساحاً فى معالجتها أو التقليل من خطرها .

ومن الخطباء من كان يحتال على عيوب نطقه بمجافاة الحروف التى كانت تقع فيها ، كما فعل واصل بن عطاء وهو شيخ من شيوخ الاعتزال ، فقد كان يلثغ فى الراء ويجعلها غيناً ، فاستطاع أن يعرى كلامه منها ، وأن يجعلها لا تقع له فى خطاب ، بما يجدُ لها من الألفاظ المترادفة التى تؤدى معناها . وقد كانت تسعفه القدرة اللغوية على ذلك ، إلى حد لم يخلُ من إبداء الدهشة ، وضرب المثل بالمقدرة .

وأعجب ما فى أمر واصل بن عطاء أنه لم يتجنب الراء فى الخطب المجهزة والأحاديث المحبرة فحسب ، ولكنه تغلب على العيب الذى منى به حين يرتجل الخطب أو يحاج الخصوم ، أو يناقل الأكفاء من علماء الكلام وأصحاب المذاهب والنِّحل .

ومن عيوب الخطيب اللحن ، وهو إخراج الكلام على غير وجوهه من النحو أو الصرف أو اللغة . وقد كان خطباء الجاهلية أبعد الناس عن لحن ، لمكانهم

---

(١) الحكلة : العجمة فى الكلام ، واللفف : البطء فى الكلام ، واللجلجة : التردد فى الكلام ، والفأفأة : ترديد الفاء ، والتمتمة : رد الكلام إلى الفاء والميم ، واللثغة : تحول بعض الحروف إلى بعض كالراء غيناً ، والسين ثاء .

من الفصاحة والبداوة التى لم تفسدها الحضارة . فقد كانت اللغة فطرة فيهم لم تشبها مخالطة الأعاجم وفساد الألسنة . فلما دخل اللحن إلى اللغة بدأ يجد طريقه إلى الخطباء ، حتى وجدنا من بلغاء الخطباء من كان لحَّاناً ، كخالد بن عبد الله القسرى ، وخالد بن صفوان الأهتمى . ولأمر ما عَدَّ عبد الملك بن مروان اللحن فى المنطق هجنةً على الشريف ، أو أقبح من التفتيق فى الثوب النفيس .

وقد يلجأ بعض الخطباء إلى الترداد فى عباراته توكيداً للمعنى الذى يريده ، وتقريراً له فى ذهن السامع ، ولن يكون ذلك عيباً إلا إذا بلغ حدا يمل معه الكلام ويسأم السماع . وإلا فهو يحلو فى الخطابة كما يحلو فى الكتابة . ومقامات الكلام هى التى تحدد الترداد على قدر أحوال المستمعين ، وعلى قدر إرادة الخطيب توكيد المعانى فى أذهانهم ، وعلى قدر ما يحتمله المقام من المقال .

وقد يستعين بعض الخطباء على متابعة الكلام بلوازم يكررونها فى أفواههم ويديرونها على ألسنتهم ، كأنما يجتلبون بها الألفاظ ، ويتصيدون بها العبارات . كأن يقول الواحد منهم عند مقاطع كلامه : يا هذا ، يا هيه ، اسمع منى ، افهم عنى ، استمع إلىّ ، وأشباه هذه الكلمات مما نسمعها تتردد على ألسنة بعض الناس حين يتحدثون حديثاً عادياً ، وهى إذا كانت دلالة العجز فى الحديث فهى فى الخطابة أدل على العجز ، وأبين على العىّ .

ومن عيوب الخطيب أن يتوقف أو يتحبس فى كلامه أو يتنحنح . وليس التنحنح إلا حيلة يصل بها الخطيب إلى لفظ يستدعيه من بُعد ، أو معنى يتصيده بعد استعصاء ، فهو وقفة فى الذهن يعبر عنها ذلك الصوت الخاص الذى يحمل من دلائل القصور ، أكثر مما يحمل من مطاوعة التعبير . . .

النساء الخطيبات

إذا كان النساء الشواعر قلة نادرة فى الأدب العربى بالنسبة إلى ذلك العدد الضخم من الرجال، فأن الخطيبات من النساء أقل من القليل فى أدبنا وفى الآداب الأخرى التى نعرف تاريخها فى القديم والحديث .

ولن نلقى القول هنا جزافاً بغير دليل . فلو رجعت إلى ما دون لنا من خطب اليونان والرومان لم تكد تظفر باسم أنثى واحدة بين ذلك العدد العديد من الرجال . ولو رجعت إلى كتاب فى تاريخ الأدب الفرنسى من نشأته المعروفة حتى عصرنا هذا فلن تظفر باسم امرأة واحدة بين عشرات الأسماء من الرجال الخطباء ، من عهد بودان ، وسان فرنسوا دى سال ، إلى عهد چول فافر ، ولاكوردير ، وغامبتا ، وديدون . ولن ترجع من البحث بجدوى حين تفتش فى تاريخ الأدب الإنجليزى عن خطيبة واحدة ، إلا ما يصادفك من أسماء بعض المتحدثات أو المتكلمات فى العصر الحديث .

وستلقاك من الرجال الخطباء على مر العصور أسماء قرعت سمع الدهور حتى بقيت لنا أصواتها قوية مجلجلة كعهدها بالأمس البعيد أو القريب ، من أمثال ديموستين ، وشيشرون ، وإدمون برك ، وبرايت ، وميرابو ، وغامبتا ، ووليم بت ، وغلادستون ، ولنكولن ، وكافور ، وكوشوت المجرى عند الفرنجة ، ومحمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، وعلى بن أبى طالب ، والحجاج ، وزياد بن أبيه ، وابن الفجاءة ، وابن نباتة ، وعبد الله النديم ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول عند العرب والمسلمين . ولكنك لن تلقى امرأة خطيبة واحدة تركت وراءها من جهارة الصوت ، وبلاغة النطق ، ونصاعة البيان فوق المنابر ما يدانى ذلك المكان، الذى تركه الرجال فى هذا الميدان .

على أن من النصفة للأدب العربي وللمرأة العربية أن لا نغفل فى هذا المقام ذكر بعض النساء الخطيبات اللائى أثِرَ عنهن من المواقف ما لم يضنّ التاريخ الأدبي بتسجيله لهن .

ولقد كان للحركة الشيعية فضل فى إظهار بعض الشخصيات النسوية المحاربة الموالية لعلى عليه السلام ولأهل البيت . وقد امتاز هؤلاء الشيعيات — فوق جرأتهن وبلائهن فى سبيل العقيدة — بمقدرة خطابية لعلها كانت ثمرة ضرورية من ثمار ذلك العهد المقاتل المتنازع الذى اعتمد على قوة السيف من ناحية ، وعلى قوة البيان من ناحية أخرى .

ولقد كانت الحرب بين على ومعاوية أو بين أهل الشام وأهل العراق ، ميداناً فسيحاً لمواهب المحاربين والخطباء ، حتى لقد كانت امرأة مثل « عكرشة بنت الأطرش » متقلدة حمائل السيوف فى موقعة صفين المشهورة ، وهى واقفة بين الصفوف تحضض على قتال معاوية قائلة : « أيها الناس ! عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . إن الجنة لا يَرْحل من أوطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها . وكونوا قوماً مستبصرين فى دينهم ، مستظهرين بالصبر على طلب حقهم . إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب ، غُلْفِ القلوب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرون الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبّوه ، فاللهَ اللهَ عباد الله فى دين الله ! إياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عُرا الإسلام ، ويطفىء نور الحق . هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى . يا معشر المهاجرين والأنصار ! امضوا على بصيرتكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالحُمُرِ الناهقة ، تصقع صقع البعير » .

ولم تكن عكرشة هى الخطيبة الوحيدة فى الحروب بين على ومعاوية ، لقد كانت هناك أم الخير بنت الحريش التى طالما ألّبت على معاوية وحرضت على

قتاله، واتهمته بأذكاء الأحقاد الجاهلية التى محاها الإسلام، ودعت إلى الإمام العادل على توحيداً للكلمة، ورأباً لصدع المسلمين . ولقد أثرت لها خطبة خطبت بها الناس وهى على جمل أرمك كلون الرماد ، وبيدها سوط قد انتشرت ضفائره ، وهى تهدر كالفحل من الإبل يهدر فى شقشقته ، وتقول : « يأيها الناس ! اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبان الدليل ، وبين السبيل، ورفع العلَم ، ولم يدَعكم فى عمياء مدلهمّة، فأين تريدون رحمكم الله ؟ أفِراراً عن أمير المؤمنين ؟ أم فراراً من الزحف ؟ أم رغبة عن الإسلام ؟ أم ارتداداً عن الحق ؟

أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول : « ولنبلُونّكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونَبْلُوَ أخباركم»؟، ثم رفعت رأسها إلى السماء، وهى تقول : اللهم قد عِيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرغبة ، وبيدك يا رب أزِمّة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله . هلموا — رحمكم الله — إلى الإمام العادل ، والرضى التقى ، والصديق الأكبر ، إنها إحن بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحدية ، وثب بها معاوية حين الغفلة ، ليدرك ثارات بنى عبد شمس . « قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » صبراً يا معشر المهاجرين والأنصار ! قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم ، فكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة ، فرت من قسورة ، لاتدرى أين يُسلك بها من فجاج الأرض . باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وعما قليل ليصبحن نادمين ، حين تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة ، ولات حين مناص . إنه من ضل والله عن الحق وقع فى الباطل . ألا إن أولياء الله استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستطابوا الآخرة فسعوا لها، فالله الله أيها الناس ! قبل أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود، وتقوى كلمة الشيطان . فإلى أين تريدون — رحمكم الله — عن ابن عم رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، وصهره ، وأبي سبطيه ؟ خلق من طينته ، وتفرع من نبعته ، رجعله باب دينه ، وأبان ببغضه المنافقين . وها هو ذا مفلق الهام ، ومكسر الأصنام ، صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون . فلم يزل فى ذلك حتى قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أحد ، وهزم الأحزاب ، وقتل الله به أهل خيبر ، وفرق به جمع هوازن ، فيالها من وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقاً ، وردة وشقاقاً ، وزادت المؤمنين إيماناً . قد اجتهدتُ فى القول ، وبالغت فى النصيحة ، وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله ! » .

وكان للزرقاء بنت عدى الهمدانية موقف لا يقل روعة عن موقف أم الخير فى الحث على قتال معاوية ، حتى إنه لم ينس خطبتها وهى راكبة الجمل الأحمر يوم صفين ، وحين استقدمها من الكوفة بعد أن صارت إليه الخلافة ذكرها بخطبتها التى قالت منها يوم ذاك : « أيها الناس ! ارعووا وارجعوا ، إنكم قد أصبحتم فى فتنة غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيالها فتنة عمياء صماء بكماء ! لا تسمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها . إن المصباح لا يضىء فى الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه . أيها الناس ! إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص ، فكأن قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة الحق ، ودمغ الحق الظُّلمة ، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف وأنى ؟ ليقضى الله أمراً كان مفعولا . ألا وإن خضاب النساء الحنّاء ، وخضاب الرجال الدماء ، ولهذا اليوم ما بعده ، والصبر خير فى الأمور عواقبا . إيها فى الحرب قدماً ! غير ناكصين ولا متشاكسين » .

وإذا كان تاريخ الأدب قد حفظ لنا اسم « الخنساء » شاعرة مجيدة فى رثاء أخويها صخر ومعاوية وأبنائها الذين استشهدوا فى حرب القادسية ، فإنه حفظ لنا اسم صفية بنت هشام المنقرية خطيبة مجيدة فى رثاء ابن عمها الأحنف بن قيس

وسنذكر ذلك فى موضعه من الكتاب عند الكلام على خطب الرثاء .

ومما تفخر به أعواد المنابر فى العصر الحديث أن فتاة عربية كان لها على المنبر مواقف عرفت فيها بحسن الإلقاء ، وبلاغة الأسلوب ، ورشاقة التعبير ، ونبالة الأفكار ، وخدمة المجتمع ، وحسن الإعداد . تلك هى الكاتبة الخطيبة « الآنسة مى » ؛ وكانت تجود خطبها المعدة تجويداً يزيده الإلقاء جمالا . وطالما سعت إليها المنابر العربية فى لبنان ومصر ، مكرمة ، أو مودعة ، أو داعية إلى إصلاح ، أو متحمسة لحركة النهضة النسائية ، أو رائدة من رائدات التقدم الحديث ، أو محاضرة فى الأدب ، أو راثية وافية ، كمرثيتها الخالدة فى تأبين « باحثة البادية » بمناسبة مرور عام على وفاتها سنة ١٩١٩ .

أما خطبتها فى « المرأة والتمدن » التى ألقتها على منبر النادى الشرقى سنة ١٩١٤ فلا بأس أن نذكر منها فى ختام هذا الفصل هذه العبارات : « أيها السيدات والسادة ؛ نحن فى فصل الربيع ، والحياة تنبض بقوة فى كل جزء من أجزاء الكون ، ونيسان « شهر إبريل » رسول الجمال ، ونبى النور ، يسلم أنفاسه الأخيرة ، تاركاً جماله وأنواره فى ذمة أيار « مايو » ملك الورود ؛ إذن لست بحاجة للبحث عن موضوع أحدثكم به ، فأن الفصل المار بنا يوحى إلىّ موضوعاً جميلا : الأزهار ! تلك المخلوقات العجيبة التى لا تراها نفس حساسة إلا وتشعر بأنها إزاء سر غامض ، قد التف بألوان الحدائق والرياض ، وستّر معانيه بعطورها ! على أن الوقت ليل ، ورداء الظلام يحجب عن النواظر وضوح الأشياء ، والأزهار التى تتفتح فى النهار وريقاتها كأعلام نصر منشورة ، تنكمش لملامسة الليل ، لأن رطوبة الليل تذبلها . لكنى سأبدلها بزهرة أوفر منها جمالا ، وأتم شكلا ، وأدعى إلى التفكير ، وأحرى باهتمام ذوى القلوب الغيورة الرحيمة . . . تلك الزهرة التى تضم فى كيانها آيات الحسن الكبرى ، وأسرار الحنان الذى لا يدرك ولا ينقضى . . . تلك الزهرة التى يعذبها ظمأ الحرية ، وتتجاذبها العواصف

وتقاذفها صرعات الزمان منذ أجيال طوال ، فلا ينقصف غصنها ولا يلتوى . . .

تلك الزهرة النارية التى تناول الدهور آمال المستقبل ، وتنقل من ذرية إلى ذرية قبس الحياة العظيم . . لقد عرفتم تلك الزهرة العجيبة . . هى المرأة ! » .

وهكذا كان أسلوب « مىّ » الخطيبة ، يفيض بالحيوية والرشاقة والعطر الذى كانت تعصره تلك المرأة من قلبها الكبير . . .

الفصل الثالث

الخطبة

أجزاؤها — أسلوبها — أنواعها

أجزاء الخطبة

لعل الفيلسوف سقراط هو أول من وضع فى دستور الخطابة خطة لترتيب أجزائها ، وإن كان لم يعتبر الخطابة علما ذا قواعد ، وإنما جعلها عادة تثبت المرانة أصولها ، وتحكم التجربة قواعدها .

وجاء أرسطو بعد سقراط وأفلاطون فوضع للخطابة والخطب من القواعد ما يعد به ابن بجدتها ، ونقلها من باب العمل والتجربة إلى حظيرة العلم المقنن ، أو الفن الأدبى ذى القواعد ، ولن ننساق هنا إلى الحديث فى تحديد مكان الخطابة من العلم أو الفن ، ويكفى أن نشير إلى ما ذكره « سبنجل » فى القرن الماضى من فنية الخطابة عند أرسطو .

على أن أرسطو هو صاحب الفضل الأول فى تقسيم الخطب تقسيما مفصلا بحسب أنواعها الاستشارية والقضائية والاستدلالية ، وهو تقسيم يرده الفيلسوف إلى الزمن ماضياً وحاضراً ومستقبلا . فالحكم على أمور ماضية ينتج لنا الخطب القضائية ، والحكم على أمور مستقبلة ينتج الخطب الاستشارية ، والحكم على أمور حاضرة ينتج الخطب الاستدلالية ، وهى خطب الوعظ والتحذير والمدح والذم وما إليها . وسنعود إلى هذا التقسيم بشىء من التفصيل، عندما يبلغ بنا القول إلى أنواع الخطب فى القديم والحديث .

ولا تخلو الخطبة – على كل حال – من مقدمة يفتتح بها الحديث ، وعرض للموضوع ، وهو أهم عناصر الخطبة وأحفلها بما يخطب الخطيب من أجله، بل هو الأساس الذى تبنى عليه الخطبة ، والمحور الذى تدور حوله . ولولاه لأصبحت الخطبة شيئاً غير ذى موضوع . . . وخاتمة هى نهاية المطاف ، وقد تلتقى فيها على إيجازها منابع الفيض الذى كان يهدر بالموضوع كله .

ومن شروط المقدمة ألا تبعد عن الموضوع ، وأن تكون ممهدة له موطئة لأكنافه ، مفضية إليه ، وأن تكون بينة الدلالة على الغرض ، آخذة بحجز ما بعدها حتى تشوق السامع إليه ؛

ومن شروط العرض أن يكون متماسكاً متلاحم الأقطار ، حتى لا يضعفه التفكك وتخلخل الفكرة ، وأن يكون مرتباً غير مهوش ولا مضطرب ، حتى يصل إلى الأذن وكأنه نغمة متساوقة لا نشاز فيها ، وأن يكون واضحاً بعيداً عن اللبس والاحتمال ، قاطع الدلالة على الغرض ، مقنعاً حتى لا يأباه العقل ، مغرياً حتى ينجذب إليه القلب ، صادقاً حتى لا يتسرب إليه الريب ؛

أما الخاتمة فهى رَجع الصدى من صوت الخطيب ، وآخر نغمة فى آذان السامعين بعد الفراغ من الخطبة ، فلا بد أن تكون نغمة قوية مؤثرة ، لا ضعيفة فاترة ، ولا بد أن تحدث من الأثر ما يرجوه الخطيب من موضوع خطبته . وقد تكون تلخيصاً للعرض وتوكيداً له ، فهى أثبت فى الذهن ، وأعون على الحفظ ، وأقوى على التأثير . وليس بمستحب أن تطول ، حتى لا تكون نغمة معادة مكررة وما أسمج المكرر إذا تردد وود السامع أنه لم يتكرر ولم يطل . ومَن لنا بخطيب يتحدث حديث الحبيب لا يمل إذا طال ؟ !

وقد وضع العرب للخطبة شروطاً فى البدء والختام أوجبوا السير عليها والتقيد بها . فجعلوا افتتاحها بالتحميد والتمجيد لله والصلاة على النبى شرطاً لا يجوز التحلل منه ، حتى قال الجاحظ فى « البيان والتبيين » إن خطباء السلف الطيب

وأهل البيان من التابعين بإحسان ما زالوا يسمون الخطبة التى لم تبدأ بالتحميد ، وتستفتح بالتمجيد : البتراء ، ويسمون التى لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبى : الشوهاء .

وقيل إن زياد بن أبيه لما ولى البصرة من قبل معاوية خطب خطبة لم يحمد الله فيها فسميت البتراء ، وهى الخطبة التى أعلن فيها سياسته الشديدة حتى يستقيم الأمر على سيسائه ، وفيها يقول : « إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف . وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه ، فيقول : انج سعد ، فقد هلك سعيد، أو تستقيم لى قناتكم - إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتى ، فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها فىّ ، واعلموا أن عندى أمثالها - من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه ، فأياى ودَلج الليل ، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه . وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع إليكم ، وإياى ودعوى الجاهلية ! فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعتُ لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه حيا فيه ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم ، أكفف عنكم يدى ولسانى »

ولولا ضيق المقام لأتينا بها هنا كاملة .

أما خلو الخطبة العربية من بعض آى القرآن فقد كان شيئاً ينقص من قدرها مهما كان حظها من البلاغة وقوة الحجة ، ويحدثنا عمران بن حطان خطيب الخوارج المشهور قائلا : خطبتُ عند زياد خطبة ظننت أنى لم أقصر فيها عن غاية ، ولم أدَعْ لطاعنٍ علة، فمررتُ ببعض المجالس ، فسمعت شيخاً

يقول : هذا الفتى أخطب العرب ! لو كان فى خطبته شيء من القرآن !

وكانت عبارات التحميد فى خطب النبي والخلفاء الراشدين دائرة متعارفة ، حتى لقد تتبعها ابن قتيبة فى « عيون الأخبار » فوجد أن أوائل خطب الرسول عليه السلام أكثرها : « الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ـ من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادىَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » . كما وجد أن كل خطبة مفتاحها : الحمد لله ، إلا خطبة العيد ، فإن مفتاحها التكبير .

وقد عدّ الفضل الرقاشى ـ وهو أحد وعاظ البصرة وأهل الاعتزال فيها ـ الخطبة الخالية من حمد الله فى المفتتح عملا ناقصاً ، فقد خطب الفضل لنفسه إلى قوم من بنى تميم ، فلما فرغ من خطبته ـ وهو المدره المفوه ـ قام أعرابى منهم ، فقال : توسلتَ بحرمة ، وأدليت بحق ، واستندت إلى خير ، ودعوت إلى سنة ، ففرضك مقبول ، وما سألت مبذول ، وحاجتك مقضية إن شاء الله تعالى . فقال الفضل : لو كان الأعرابى حمد الله فى أول كلامه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم لفضحنى يومئذ !

أما ختام الخطب عند العرب فقد كان لكل خطيب عبارة يطيل تكرارها ، فيعرف الناس أنه على وشك الانتهاء من خطبته ـ وقد لاحظ صاحب « العقد الفريد » أن آخر كلام أبي بكر الذى إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته: « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم ألقاك » . أما عمر بن الخطاب فكان أكثر خواتيم خطبه : « اللهم لا تدعنى فى غمرة ، ولا تأخذنى على غرة ، ولا تجعلنى من الغافلين » . كما كان الخليفة عبد الملك ابن مروان يقول فى آخر خطبته : « اللهم إن ذنوبى قد عظمت ، وجلت أن تحصى ، وهى صغيرة فى جنب عفوك ، فاعف عنى ! »

ولو رجعنا إلى خطب صدر الإسلام والعصر الأموى والعباسى لوجدناها فى الأكثر لا تخلو من تزيينها بآية أو أكثر من القرآن للاستشهاد وتقوية الحجة ونصاعة الدليل . ولم يكن ذلك فى خطب الجمعة والعيدين باعتبارها خطباً دينية ، بل كان يجرى فى خطب المحافل والوفود والحروب وغيرها . وذكر صاحب « البيان والتبيين » أن ذلك مما يستحسن فى الخطب، لأنه يورث الكلام البهاء ، والوقار ، والرقة ، وسلس الموقع . ولا شك أن الجملة من القرآن إذا ذكرت فى وسط الكلام ظهرت عليه ، وبان فضلها على عبارات البشر ، فكانت أبلغ فى المراد ، وأوقع فى الألباب .

وقد يستشهد الخطيب بالشعر فى خطبته ، فيذكر شطراً من بيت ، أو بيتاً من قصيدة ، أو أبياتاً لشاعر يزين بها الكلام ويزخرفه ، فإن للشعر موسيقى فى الأذن تفيد فى استمالة السامعين وإثارة شعورهم . وقد يفعل بيت من الشعر فى خطبة ما لا تفعل الخطبة بأجمعها .

وكثيراً ما كان الحسن رضى الله عنه ينشد فى مواعظه قول الشاعر عدى بن الرعلاء الغسانى :

ليس من مات فاستراح بميْت ... إنما الميت ميت الأحياء !

على أن أكثر الخطباء حتى القرن الثالث الهجرى لم يستشهدوا بالشعر فى خطبهم إلا على قلة تكاد تبلغ حد الندرة ، وإن كان ذلك لم يمنع أن نرى مثل عبد الله بن عباس، وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف الثقفى ، وزياد ابن أبيه يتمثلون فى خطبهم بالبيت أو أكثر ، كما صنع زياد حين صعد المنبر فقال : « أيها الناس ! لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا ، أن تنتفعوا بأحسن ما تسمعون منا ، فإن الشاعر يقول :

اعمل بقولى ، وإن قصرتُ فى عملى ... ينفعك نصحى ولا يضرك تقصيرى

ولعل أطول قدر استشهد به من الشعر فى خطبة ما أتى به عبد الملك بن مروان حين دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ . فقد تمثل بسبعة أبيات من شعر قيس بن رفاعة الأنصارى . ولا بأس من ذكر الخطبة هنا كما رويت فى « الأمالى » : « أيها الناس [١] ! إن الحرب صعبة مرة ، وإن السلم أمن ومسرة ، وقد زبنتنا الحرب وزبناها ، فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهى أمنا ! أيها الناس ! فاستقيموا على سبل الهدى ، ودعوا الأهواء المردية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شرا ، ولن نزداد بعد الإعذار إليكم ، والحجة عليكم إلا عقوبة ، فمن شاء منكم أن يعود بعد لمثلها فليعد ؟ فإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة الأنصارى :

من يَصْلَ نارى بلا ذنب ولا ترة [٢] ... يصل بنار كريم غير غدار
أنا النذير لكم منى مجاهرةً ... كى لا ألام على نهى وإنذار
فإن عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا ... أن سوف تلقون خزياً ظاهر العار
لترجعُن أحاديثاً ملعّنةً ... لَهْوَ المقيم ولهو المدلج السارى
من كان فى نفسه حوجاء يطلبها ... عندى فإنى له رهن بإصحار [٣]
أقيم عوجته إن كان ذا عوج ... كما يُقَوِّم قِدْحَ النبعة البارى [٤]
وصاحب الوِتر ليس الدهر مدركه ... عندى وأنى لدرّاك بأوتار »

ولعل ذلك القدر من الاستشهاد بالشعر فى الخطبة العربية هو أكثر ما وقعنا

---

(١) فى « صبح الأعشى » أن هذه الخطبة لمعاوية ، وفى « الأمالى » أنها لعبد الملك بن مروان وهو أميل إلى الحق والصواب .

(٢) الترة : الثأر .

(٣) الحوجاء : الحاجة . رهن بإصحار : أى ظاهر لا أستتر كما يبرز القوم فى الصحراء .

(٤) القدح : السهم . النبعة : واحدة النبع وهو شجر تصنع منه القسى .

عليه بعد تتبع طويل دقيق للخطابة فى جميع العصور .

وقد يملح أن نختم هذا الفصل بذكر طريفة من طرائف الاستشهاد بالشعر فى الخطب القضائية ، فقد ذكروا أن « باسكيه » الخطيب القضائى المشهور فى فرنسا فى القرن السادس عشر قد أورد فى إحدى مرافعاته بيتاً من الشعر اللاتينى لم ينسبه إلى قائله ، فلم يشأ قاضى القضاة أن يفصل فى الدعوى إلا إذا ذكر هذا البيت اليتيم منسوباً إلى صاحبه !

أسلوب الخطبة

إن بين الخطابة والكتابة فروقاً تقتضيها طبيعة الأشياء ، وظروف الإلقاء والكتابة ، والعوامل النفسية التى يعتمد عليها الخطيب فى استمالة السامعين واجتذابهم ، والتحدث إلى الجماعات فى الخطابة ، على حين أن الكاتب يُقرأ على انفراد ، وهو لا يواجه القارئ إلا بما كَتَب، على حين أن الخطيب يواجه المستمعين بأشخاصهم ، ويرمقهم بنظره كما يرمقونه بأنظارهم ، ويهفون إليه بأسماعهم .

ومن هنا كان للخطبة غير ما للرسالة أو المقالة من أثر . ومهما قيل فى الخطابة وهل تعتمد على الإقناع وحده أم على الاستثارة والانفعال ، أم عليهما معاً فإنه لا نكران أن للأسلوب الخطابى من الشروط ما لا يطلب حصوله فى أساوب الكتابة أو الرسالة . فأن مخاطبة الجماهير تقتضى نوعاً من التعبير لا يشترط فى العبارة الكتابية التى يقرؤها القارىء على خلوة وانفراد ، وفى هدأة من النفس تحتاج إلى إعمال الفعل أكثر مما تحتاج إلى استفزاز العاطفة .

وقد كان بعض الخطباء يعتمدون على مخاطبة العقل وحده من غير التجاء إلى الاستمالة ومخاطبة العواطف ، ومن هؤلاء « روبسبير » أحد رجال الثورة الفرنسية ، وكثيراً ما نجح فى مغالبة خصومه بالإقناع لا بالاستمالة ، على حين كان « غامبتا » الخطيب الفرنسى المشهور يمتاز بفصاحة تعتمد على العاطفة أكثر مما تعتمد على العقل والتحليل . أما « ميرابو » خطيب الثورة الفرنسية فكان يجمع فى خطبه بين مناقشة المنطق وإثارة العواطف .

وإذا كانت بعض ضروب الخطابة تحتاج إلى التدليل المنطقى والحجاج العقلى كخطب المرافعات فى المسائل المدنية ، والخطب العلمية ، وخطب

المناظرات والجدل ، فإن خطب الحرب والتحضيض على القتال وبعض الخطب السياسية تحتاج إلى الإثارة العاطفية . ومن ذلك ما فعله عمرو بن العاص حين جمع أهل الشام قبل الوقعة الكبرى بصفين يحرضهم على قتال علىّ قائلا : « الحمد لله العظيم فى شانه ، القوى فى سلطانه ، العلى فى مكانه ، الواضح فى برهانه ، أحمده على حسن البلاء ، وتظاهر النعماء ، فى كل رزية من بلاء . أو شدة أو رخاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . ثم إنا نحتسب عند الله رب العالمين ما أصبح فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من اشتعال نيرانها ، واضطراب حبلها ، ووقوع بأسها بينها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . أو لا تعلمون أن صلاتنا وصلاتهم ، وصيامنا وصيامهم ، وحجنا حجهم ، وقبلتنا وقبلتهم ، وديننا ودينهم واحد ؟ ولكن الأهواء مختلفة . اللهم أصلح هذه الأمة بما أصلحتَ به أولها ، واحفظ فيما بيننا ، مع أن القوم قد وطئوا بلادكم ، وبغوا عليكم ، فجدوا فى قتال عدوكم ، واستعينوا بالله ربكم ، وحافظوا على حرماتكم » .

فليس هنا تدليل على حق ، ولا مناقشة لحجج أصحاب الإمام على وحقهم ، ولكن هنا أسلوب خاص فى الاستثارة للحث على القتال .

ومما يمتاز به أسلوب الخطبة ذلك الوضوح الذى يكشف عن قصد الخطيب فى غير تعمية ولا تضليل ، ومن أقرب الطرق مجازاً ، وأبينها جوازاً . وسبيل الوضوح هو التعبير فى سهولة وفى غير معاظلة ولا تعقيد يفسدان على الخطيب قصده من الإبانة ، وقد يغمض كاتب المقال فيجد من وقت القارئ ومن معاودته القراءة مرة بعد مرة ما يعينه على الفهم واصطياد الفكرة . أما الخطيب حين يغمض ويبهم فليس عند السامعين من الوسائل ما يمكنهم من استدراك ما فاتهم من المعنى ، وهنا مظنة فوات فهم الخطبة كلها ، فيضيع القصد منها ويبطل المراد بها ، ومن هنا كان الوضوح للخطيب ضربة لازب .

وقد يأتى غموض الخطيب من ناحية التكلف فى سوق الأفكار ، أو التوعر فى اختيار الألفاظ ، وكلاهما منهك للمعنى . وإذا كان بجانب قارئ المقالة من المعاجم ما يسعفه بتفسير الغريب حين يشكل عليه لفظ ، فإن سامع الخطيب ليس عنده من وسائل الإمكان ما يجلو به غوامض الألفاظ . وإذا كان التوعر ممقوتاً فى الكتابة فإنه فى الخطبة أشد مقتاً . ولا يذهبن بك الظن أن الألفاظ الكزة الغليظة هى معيار جودة الكلام ، وفصاحة اللسان . فهى دلالة على الحفظ ومجافاة الذوق ، أكثر مما هى دلالة على مراعاة المقام ، وتصريف وجوه الكلام . ولا تنس هنا ما قاله أبو هلال العسكرى فى « الصناعتين » : « وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة ، وجاسية غريبة ، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلساً عذباً ، وسهلا حلوا . ولم يعلموا أن السهل أمنع جانباً ، وأعز مطلباً ، وهو أحسن موقعاً ، وأعذب مستمعاً » .

ومسألة الإغراب فى الألفاظ نسبية تقتضيها أحوال المخاطبين وبيئاتهم ، ويحددها معجم الاستعمال العصرى أكثر مما يحددها المعجم الدائم الذى يسجل الألفاظ على توالى العصور . فإن ما نراه اليوم غريباً جاسياً من بعض خطب الجاهلية ووصاياها وأوصافها قد يكون مألوفاً فى زمانهم دائراً على ألسنتهم . فمدار الغرابة والإغراب هو العرف القائم ، لا المعجم اللغوى الدائم . . .

ويمتاز أسلوب الخطبة بنوع من الموسيقى وتساوق النغم . وطريق ذلك اختيار الألفاظ ، وتقسيم فقار الكلام ، والمزاوجة بين الجمل ، واللجوء إلى السجع الذى يذكرنا بالقوافى الشعرية .

وقد يلجأ بعض الخطباء إلى تقصير الجمل إلى حد الكلمتين للجملة الواحدة ، كما يلجأ بعضهم إلى التطويل فى الجمل إلى حد تضل فيه أوائلها عن أواخرها ،

وتتسع مسافة الفصل بين رءوسها وأذنابها . ولكن الخير فى التوسط بين النهجين ، كما جرى على ذلك أغلب خطباء العرب .

ومن الخطب ذوات الجمل القصار خطبة صفية بنت هشام وهى واقفة على قبر ابن عمها الأحنف بن قيس ترثيه قائلة : « لله درك من مجنّ فى جُنَن ، ومُدرَج فى كفن ، إنا لله وإنا إليه راجعون . نسأل الله الذى فجعنا بموتك ، وابتلانا بفقدك ، أن يوسع لك فى قبرك ، وأن يغفر لك يوم حشرك ، وأن يجعل سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرشاد دليلك . معشر الناس ! إن أولياء الله فى بلاده ، شهود على عباده ، وإنا قائلون حقا ، ومثنون صدقاً ، وهو أهل لحسن الثناء ، وطيب الدعاء . أما والذى كنتَ من أجله فى عدة ، ومن المضمار إلى غاية ، ومن الحياة إلى نهاية ، الذى رفع عملك ، عند انقضاء أجلك ، لقد عشت حميداً مودوداً ، ولقد مت فقيداً سعيداً ، وإن كنت لعظيم السلم ، فاضل الحلم ، صحيح الأديم ، منيع الحريم ، وارىَ الزناد ، رفيع العماد ، وإن كنت فى المحافل لشريفاً ، وعلى الأرامل لعطوفاً ، وفى العشيرة مسوداً ، وإلى الخلفاء مُوفداً ، ولقد كانوا لقولك مستمعين ، ولرأيك متبعين » .

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى خطب قس بن ساعدة الإيادى ، والمأمون الحارثى فى العصر الجاهلى ، وخطب منذر بن سعيد فى الأندلس ، وخطب ابن نباتة الفارقى من خطباء القرن الرابع الهجرى ، فهى تمتاز بالجمل القصار فى أكثرها .

فإذا بلغ بنا المطاف إلى العصر الحديث رأينا الجمل تطول فى قلة من السجع أو فى تحرر منه . حتى لتلفت نظرنا خطب الزعيم مصطفى كامل فى طول فقارها ، وبعد ما بين جملها ، وندرة السجع فيها ، كقوله من خطبته فى الإسكندرية يوم ٣ مارس سنة ١٨٩٦ وهى أول خطبه الوطنية : « إن فى مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعى العمل ، فلبست ثياب اليأس ، وقضت بظنونها على مستقبل الوطن العزيز ، وجعلت مهمتها فى الأمة تثبيط الهمم وإقعاد العزائم ،

فلا تنادى فى المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ فى المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية ، وأن شعبها قد مات من زمن طويل ، وليس لمفكر عاقل أن يؤمل له مستقبلا جديداً ، وترى رجال هذه الفئة اليائسة يرمون كل رجل يقوم بالدفاع عن حقوق البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر .

وعندى أن الرجال اليائسين — وإن كانوا أقل من القليل — يضرون بلادهم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررونه ، إذ أن قتل العواطف الشريفة وإخماد نار الغيرة الوطنية هما ولا محالة أكبر جناية تجنى على الوطن وأهله . فليكن من واجبنا أن نترك هؤلاء اليائسين فى سفن يأسهم تصعدهم أمواج الأفكار وتهبطهم ، حتى نصل بهم إلى شاطىء الخير وبر الرفاهية ، فنذكرهم عندئذ بفساد مزاعمهم وخطأ آرائهم » .

على أنه فى أخريات عهده بالخطابة كان يدخل فى خطبه بعض الجمل القصار ذوات العاطفة المشبوبة ، دفعاً للهمم ، وإثارة للمشاعر ، كبعض جماه فى خطبته المشهورة سنة ١٩٠٧ التى يقول فيها هذه المناجاة الحبيبة : « بلادى ! بلادى ! لك حبى وفؤادى ! لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر »

ولم يشترط علماء البيان التزام السجع فى الخطب ، ولكنهم استحسنوه فيها كما أشار إلى ذلك صاحب « الصناعتين » . وأكثر ما فى الخطب العربية مسجوع — سواء أكان قصير الفقار أم طويلها — إلا أن ابن الأثير صاحب « المثل السائر » يشترط فيه شروطاً أهمها أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها ، وإلا كان فى الكلام ترديد وتطويل وتكرير لا داعى له . ولكن أبو هلال العسكرى يذكر فى

رسالة التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم أن إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد بعينه تعين على ظهور المعنى لمن لم يفهمه ، وتوكيده عند من فهمه .

ولسنا هنا الآن بسبيل نقد لمذهب أدبى أو منهج بيانى ، ولكننا نعرض من وجوه الرأى ما يتضح به الموضوع ، ويتبين به الخلاف بين قبيل وقبيل .

الخطب وأنواعها

ذكرنا فى أول الفصل الثالث تقسيم الخطب عند أرسطو تقسيما بحسب الزمن لا بحسب الموضوعات ، ولا يعنينا هنا أن نناقش هذ التقسيم الذى لا يقدم ولا يؤخر فى قضية الخطابة نفسها ، فنحن الآن أمام أنواع من الخطب نجمت بحسب حالات كل قوم ، وظروف معايشهم ، وطرق تقاضيهم فى المخاصمات ، ووسائل تفاخرهم بالأحساب والفضائل ، وأسباب أخذهم بالنصيحة ، سواء أكان ذلك عن طريق الدين أم طريق العادة الاجتماعية - وللعرف فى تحديد أنواع الخطابة دخل كبير . فإن نظام المخاصمات والتقاضى فى بلاد اليونان القديمة قد اقتضى قيام الخطباء والخطب القضائية التى كانت صناعة فاشية فى البلاد بعد الهزة الخلقية التى أحدثها السوفسطائيون من قبل . كما أن عادة التفاخر عند العرب واعتزازهم بأحسابهم وأنسابهم ومكارم أخلاقهم وشرف قبائلهم — قد اقتضى كل ذلك قيام خطب المنافرة والمفاخرة فيهم وظهورها لوناً واضحاً من ألوان الخطابة الجاهلية التى امتدت إلى ظهور الإسلام .

وما عرف العرب الخطابة البرلمانية لأن هذا النظام السياسى لم يكن من معروف نظمهم . فلما دخلت الحياة النيابية فى الشرق اشتهر فى بعض الأقطار العربية جماعة من الخطباء البرلمانيين على رأسهم سعد زغلول الذى اشتهر بخطبه السياسية .

ولم يكن نظام التقاضى فى الجاهلية وفى العصور الإسلامية كلها على نحو يأذن بقيام المحامى والمدعى ، ولهذا لم تظهر الخطب القضائية فى الأدب العربى إلا حين أخذت البلاد العربية بنظام المحاكم ، ونظام الاتهام من جانب النيابة

العامة ، والدفاع من جانب المحامين ، وكان ذلك فى أواخر القرن الماضى ، فلمعت على منصة القضاء أسماء من المحامين والمدعين أضافت إلى التراث الأدبى الخطابى ثروة طيبة من الخطب القضائية، التى لا يغفلها تاريخ الأدب العربى وهو يؤرخ لبلاغات الخطباء .

وسنبدأ بالحديث عن كل نوع من الخطب، ناظرين إلى نشأته ، متتبعين لتطوره ، ذاكرين لأهم رجاله ، ضاربين من الأمثلة ما يسمح به هذا النطاق المحدود :

خطب المنافرة

المنافرة والمفاخرة بمعنى واحد ، وهى المباهاة فى الجمع المحتشد بفضائل الأصل ، ومكارم النسب ، ومحامد الخلق ، وعلو المنزلة ، ورفعة المكانة ، وجليل الفعال . مما كانت تعده الجاهلية ضرورة طبيعية لكيانها ، تألفاً للقلوب حول القبيلة ، ودعوة لخطب ودها ، وخشية بأسها . ولقد ظلت المنافرة طبعاً فى النفس العربية حتى بعد أن جاء الإسلام وأزال الفوارق ، وآخى بين الناس ، ومحا العصبية الجاهلية ، وساوى بين المسلمين، فلافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى. ولا تزال كتب التاريخ الأدبى تروى لنا منافرات طريف بن العاصى والحارث بن ذبيان عند بعض أقيال اليمن، ومنافرة علقمة وعامر بن الطفيل حينما تنازعا الرياسة، حتى ليقول علقمة لخصمه : « أنا خير منك أثراً ، وأحدُّ منك بصراً ، وأعز منك نفراً ، وأشرف منك ذكراً » فيقول له عامر : « إنى أسمى منك سِمَّة ، وأطول منك قمة ، وأحسن منك لمة ، وأجعد منك جمة ، وأسرع منك رحمة ، وأبعد منك همة . . . »

وقد يضطر الحكَم فى المنافرة أن يخطب بين الخصمين المتنافرين ، حاكماً لأحدهما على صاحبه ، فيذكر من فضائل الرجل ما ترجح به كفته على مفاخره،

كما صنع نفيل بن عبد العزى مع عبد المطلب بن هاشم — جد النبى عليه السلام — وحرب بن أمية حين تنافرا إليه ، فقال مخاطباً حرْباً : « يا أبا عمرو ! أتنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك ملامة ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل صفدا ، وأطول منك مذوداً ، وإنى لأقول هذا وإنك لبعيد الغضب ، رفيع الصوت فى العرب ، جد المريرة ، جليل العشيرة ، ولكنك نافرت منفّراً » .

ولقد أغضبت هذه الحكومة حرْباً ، فقال لنفيل : إن من انتكاس الزمان أنْ جُعلتَ حَكماً !

ومما يذكر هنا أن منافرة بنى تميم للنبى عليه السلام حين وفدوا عليه كانت سبباً فى إسلامهم ، فقد نادوه : اخرج إلينا يا محمد ! ، فخرج إليهم ، فقالوا : جئنا لنفاخرك . ثم قام خطيبهم فقال : « الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكاً ، ووهب لنا أموالا عظاماً ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق ، وأكثره عدداً ، وأيسره عدة ، فمن مثلنا فى الناس ؟ ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمنْ يفاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك ، أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا ، وأمرٍ أفضلَ من أمرنا » .

فرد عليه ثابت بن قيس — بعد أن أمره النبى بالرد — فقال : « الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيَّه علمه ، ولم يك شىء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمهم نسباً ، وأصدقهم حديثاً ، وأفضلهم حسباً ، فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان ، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس أنساباً ، وأحسن الناس وجوهاً ، وخير الناس فعالا ، ثم كان أولَ الخلق استجابة

لله – حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم – نحن ، فنحن أنصار الله ، ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبداً ، وكان قتاله علينا يسيراً ، أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات » .

ومن حسن الحظ إن الإسلام قد أبطل خطب المفاخرة والمنافرة ، لأنها كانت مظهراً من مظاهر الجاهلية ، ولم يبق من آثارها إلا ذلك اللون من العصبية التى ظهرت فى العصر الأموى لظروف سياسية تاريخية لا محل هنا للحديث عنها . وكان أغربها مفاخرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس ، وكانت الخصومة السياسية بينهما شديدة ، فبدت فى خطبهما ، وردّ كل منهما على صاحبه ردوداً قاسية عنيفة ، حتى لقد كان الرجل منهما يتنقص صاحبه ، ويبالغ فى الحملة عليه ، فنرى عبد الله بن عباس يقول فى إحدى خطبه : « واعجبا كل العجب لابن الزبير ! يعيب بنى هاشم ، وإنما شرف هو وأبوه وجده بمصاهرتهم . أما والله إنه لمصلوب قريش ! ومتى كان العوّام بن خويلد يطمع فى صفية بنت عبد المطلب ؟ قيل للبغل : مَنْ أبوك يا بغل ؟ فقال : خالى الفرس ! » .

خطب الوفود

ذكرت لنا بعض كتب الأدب قصة وفود العرب على كسرى ، ولسنا هنا الآن بصدد تحقيق هذه القصة وبيان مكانها من الواقع ، فهناك بعض الرأى بأنها قصة مصطنعة ، والذى يهمنا هو ما أثر فيها من خطب أعضاء الوفود العربية ، وهم النعمان بن المنذر ، وأكثم بن صيفى ، وحاجب بن زرارة ، والحارث بن عباد ، وعمرو بن الشريد ، وخالد بن جعفر ، وعلقمة العامرى ، وقيس بن مسعود ، وعامر بن الطفيل ، وعمرو بن معد يكرب ، والحارث بن ظالم .

ومهما كانت هذه الخطب مزورة مصطنعة ، فإنها تصور لنا كل خطيب على

فطرته وطبيعته الأدبية التي اشتهر بها في الجاهلية ، وتصور لنا أكثم بن صيفي حكيما ناصحاً كما عهدناه في غير هذا الموقف . وهو في خطبته الحكيمة في وفوده مع العرب على كسرى لم يذكر للعرب فضيلة ولم يفاخر بمكرمة ، وإنما حشد خطبته بطائفة من الحكم المتتابعة ، حتى شهد له كسرى بأنه لو لم يكن للعرب غيره لكفى ، لولا أنه وضع الكلام في غير موضعه ، فإن المقام لم يكن مقام نصح وحكمة .

ولما صدع النبي عليه السلام بما أمر به من دعوة ربه أخذت الوفود تفد إليه ، وتدخل عليه ، وتخطب بين يديه ، ومن هؤلاء وفود بني نهد ، وبني مذحج . وقد كان النبي عليه السلام يرد عليهم ويخاطبهم على قدر عقولهم ، ويتخير من الألفاظ ما يلائمهم . فحين خطب بين يديه طهفة بن أبي زهير قائلا : « نشف المدهن ، وييبس الجعثن ، وسقط الأملوج ، ومات العسلوج ، وهلك الهديّ ، ومات الوديّ » رد عليه النبي قائلا : « اللهم بارك لهم في محضها ومخضها ومذقها ، وابعث راعيها في الدثر ، بيانع الثمر ، وافجر له الثمد ، وبارك له في المال والولد » .

وهكذا يكون المقال ، ورعاية الأحوال ، ومطابقة الكلام للمقام .

وقد تتابعت الوفود على الخلفاء الراشدين بعد النبي عليه السلام ، ورأينا أمثال هلال بن بشر ، والأحنف بن قيس يخطبون مع الوفود بين يدي عمر بن الخطاب ، وأمثال دغفل ، وصعصعة ، وعبد العزيز بن زرارة ، يخطبون مع الوفود بين يدي معاوية .

ولما اشتد الخلاف بين علي ومعاوية رأينا خطب الوفود تأخذ لوناً سياسيا عنيفاً ، فكانت الوفود والرسل ترد بين الرجلين وفيها الخطباء المقاول من كل فريق . وقد يجابه الخطيب منهم خصم صاحبه بأعنف ما يجابه به إنسان ، كما صنع بشير بن عمرو الأنصاري أحد رجال الوفد الذي بعث به عليّ إلى معاوية سنة ٣٦ هـ حين قال مخاطباً معاوية : « يا معاوية ! إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ،

وإن الله عز وجل محاسبك بعملك ، وجازيك بما قدمت يداك ، وإنى أنشدك الله عز وجل أن تفرّق جماعة هذه الأمة ، وأن تسفك دماءها بينها » .

إلا أن يزيد بن قيس كان أرق عبارة وألطف مدخلا حين خطب بين يدى معاوية فى الوفد الذى بعثه علىّ سنة ٣٧ قائلا : « إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما بُعثنا به إليك ، ولنؤدى عنك ما سمعنا منك ، ونحن — على ذلك — لن ندع أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجة ، وأنك راجع به إلى الألفة والجماعة . إن صاحبنا منْ قد عرفتَ وعرف المسلمون فضله ، ولا أظنه يخفى عليك . إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلىّ ، ولن يميّلوا بينك وبينه ، فاتق الله يا معاوية ! ولا تخالف علياً ، فإنا والله ما رأينا رجلا قط أعمل بالتقوى ، ولا أزهد فى الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه » .

خطب الزواج

جرت عادة العرب حين يصهرون أن يقدم قَبيل الخاطب على أهل المخطوب إليهم . يلتمسون منهم الصهر والنسب ، ويطلبون رغيبتهم ، ويحددون مهورهم ، ويذكرون من فضائلهم ما يكافىء فضائل القوم الذين يودون مصاهرتهم . وكثيراً ما يكون هذا المقام مجالا — ضيقاً أو فسيحاً — لخطب الخطباء ، وبلاغة البلغاء ، حتى يصلوا إلى ما يريدون بحسن العبارة ، ولطف السبك ، والتلطف فى الطلب . وقد يرد أهل المرأة عليهم بما يناسب المقام ، من ملاقاة الكلام بالكلام .

وخطبة الزواج — أو الإملاك — من أشد أنواع الخطب إجهادا للخاطر ، وكدّاً للنفس . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «ما يتصعدنى كلام كما تتصعدنى خطبة النكاح» . ولعل ذلك راجع لضيق مجال القول فيها ، ولما تتطلبه من مدح قد لا يجرى على سجية الخطيب ، ولأن مذاهب القول فيها محصورة بين الرغبة والقبول . ولهذا يعرض للخطيب فيها من الحصر

والعى أكثر مما يعرض لطُلَّاع المنابر الذين يرمون بالخطب الطوال . وكانت قريش تستحسن من الخاطب الإطالة ، لأنه راغب ، ومن المخطوب إليه التقصير ، لأنه يكتفى منه بأيسر مطلوب ، وأدنى مرغوب من لفظة القبول . وعلى ذلك جرت السنة فى خطبة الزواج .

ويأبى أرباب الفكاهة فى الأدب العربى أن يدعوا خطب الزواج تمر من غير تعليق عليها وتفكه بها . فقد قالوا إن رجلا خطب امرأة إلى قومها ، وجاء معه بخطيب له ، فاستفتح بالحمد وأطال بالصلاة على النبى ، ثم ذكر البدء وخلق السموات والأرض ، واقتصّ ذكر القرون الخالية ، حتى ضجر من حضر ! ثم التفت الخطيب إلى الخاطب فقال : ما اسمك أعزك الله ؟ ! فقال : والله قد أنسيت اسمى من طول خطبتك ! وهى طالق إن تزوجتُها بهذه الخطبة ! فضحك القوم وعقدوا له فى مجلس آخر ! !

ومن أشهر خطب الزواج فى الأدب العربى خطبة أبى طالب فى زواج النبى عليه السلام بالسيدة خديجة ، وفيها يقول : « الحمد لله الذى جعلنا من زرع إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً ، وبيتاً محجوجاً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخى ، من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برًّا وفضلا ، وكرماً وعقلا ، ومجداً ونبلا ، وإن كان فى المال قل ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلىّ » .

وحين تزوج الإمام على كرم الله وجهه بالسيدة فاطمة بنت محمد رضى الله عنها خطب النبى عليه السلام خطبة من جوامع الكلم زينها بآية من القرآن فى النسب والصهر ، فرد عليه ابن أبى طالب بخطبة بليغة وجيزة .

وقد بلغت خطب الزواج فى الجاهلية حداً من القصر كما فى الخطبة الآتية :

« باسمك اللهم ، ذُكرت فلانة ، وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم ، لك ما سألت ، ولنا ما أعطيت » .

ومما يدل على ضيق المجال فى خطب الزواج أن شبيب بن شيبة زوج ابنه بنت القاضى سوار ، وكلاهما خطيب بليغ ، فقال الناس : اليوم يعب عبابه ! فلما اجتمعوا خطب شبيب فقال : « الحمد لله ، وصلى الله على رسول الله ، أما بعد : فإن المعرفة منا ومنكم ، وبنا وبكم ، تمنعنا من الإكثار . وإن فلاناً ذكر فلانة » فكان بذلك أوجز خطيب .

وقد بلغ من عجز الناس فيما بعد عن إعداد الخطب بأنفسهم أن غيرهم كان يصنعها لهم ، كما فعل الخطيب ابن نباتة الفارقى من خطباء القرن الرابع ، فقد صنع خطباً فى الزواج يتلوها الناس أو ينسجون على منوالها ، فهى نماذج أدبية فيها كثير من الصنعة البيانية الفائقة ، ولكن ليس فيها من الحياة والصدق الواقعى والإحساس الشخصى ما هو شرط الأدب المعبر الصحيح .

خطب الاستخلاف والولاية

حين كان يبايع خليفة ، أو يعهد إلى والٍ ، أو يولى عامل ، فإن هذه المناسبة لم تكن تمر من غير كلمة تقال ، أو خطبة تخطب ، رسماً لسياسة ، وتوكيداً لعهد ، ووعداً بخطة ، وتسكيناً لفتنة ، أو تهديداً لثورة . وأول خطبة من هذا النوع هى خطبة أبى بكر الصديق عقب بيعته ، فقد صعد المنبر بعد ما كان من اجتماع يوم السقيفة ومنازعة الأنصار للمهاجرين على الخلافة ، فلما آلت إليه قال : « أيها الناس ! إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا إن أقواكم عندى

الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه .
أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

وقد توالت منه الخطب عقب البيعة ، كما توالت خطب عمر بن الخطاب بعد بيعته ، فمنهن القصار ، ومنهن الأوساط ، وذكرت له عدة خطب قيل إنه قالها حين ولى الخلافة ، ولو أنها كانت تؤرّخ أزمانها لعرف أولها وآخرها . ومنهن خطبته التى يقول منها : « يأيها الناس ! إنى داع فأمّنوا ، اللهم إنى غليظ القلب فليّنّى لأهل طاعتك بموافقة الحق ، ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق ، من غير ظلم منى لهم ، ولا اعتداء عليهم . اللهم إنى شحيح فسخّنى فى نوائب المعروف ، قصداً من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة ، واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة . اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين . اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان ، فألهمنى ذكرك على كل حال ، وذكر الموت فى كل حين » .

أما معاوية فقد أعلن سياسته صريحة فى خطبته بالمدينة عام الجماعة سنة ٤١ هـ وصارحهم بقوله : « والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتى ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة . . . »

وقد أبان أبو العباس السفاح عن حق بنى هاشم فى الخلافة فى الخطبة التى ارتجلها يوم بيعته سنة ١٣٢ هـ حيث قال : « زعمت السبأية الضُّلّال أن غيرنا أحق بالرياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ! بمَ ولمَ أيها الناس ؟ ! وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصّرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ، وأدحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم من كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة ، وأتم بنا النقيصة ، وجمع الفرقة ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ، ومواساة فى دينهم ودنياهم . . . »

وكذلك كان الولاة وعمال الأقاليم حين يولّون ، يخطبون بما يلائم الموقف

من إعلان سياسة ، أو توكيد بيعة لخليفة ، أو تهديد ووعيد . ولا يزال تاريخ الخطابة العربية يذكر خطب زياد بن أبيه حين ولى البصرة ، والكوفة بعدها ، والحجاج بن يوسف حين ولى العراق ، وسعيد بن العاص حين ولى الكوفة من قبل عثمان ، وعمرو بن سعيد حين ولى مدينة الرسول من قبل يزيد بن معاوية ، وعثمان بن حيان حين ولى المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك سنة ٩٤ .

لقد كانت خطب الولاة — وخاصة ولاة بنى أمية — عنيفة فى أكثر أحوالها ، وكان التهديد يملأ عباراتها بما يثير الهلع ، وينبت الفزع . وإذا كان الحجاج يقول : « إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ! » وزياد بن أبيه يقول : « وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم » فإن عثمان بن حيان يقول لأهل المدينة : « والله ما أنتم بأصحاب قتال : فكونوا من أحلاس بيوتكم ، وعضوا على النواجذ ، فإنى قد بعثت فى مجالسكم من يسمع فيبلغنى عنكم ، إنكم فى فضول كلامٍ غيرُه ألزم لكم ، فدعوا عيب الولاة ، فإن الأمر إنما يُنقض شيئاً فشيئاً حتى تكون الفتنة ، وإن الفتنة من البلاء ، والفتن تذهب بالدين وبالمال والولد . . »

خطب الحرب والتحضيض

تقف الخطابة بجانب السيف تناصره وتشد أزره ، وكم من مواقف كان اللسان فيها وسيلة لاستلال السيوف ، وملاقاة الحتوف ، وعدة يقوى بها الجنان ، على طعنات السنان ، وكم من كلمة قذفت بالجند فى أتون الهول ، ورمت بهم مرامى الغمرات ، لا ينثنون عن طريق ، ولا يحجمون عن إقدام ، ولا يتخلفون عن زحف ، كأن الكلمات سياط تلهبهم فيتدافعون إلى الموت تدافع الإبل الظماء ، على موارد الماء .

ولقد أثر عن ديموستين خطيب اليونان من الخطب ما كان يحرض به

الأثينيين على قتال المقدونيين ، فأيقظ من ضمير الأمة اليونانية ما نبهها إلى الخطر المحدق ، والهلاك المحقق ، وعاش حياته حاضًا على قتال العدو الأكبر لأثينا .

وكثيراً ما كانت خطب القديس برنار الفرنسى وكلماته النارية تشعل قلوب أوربا فى القرن الثانى عشر الميلاد لدخول الحروب الصليبية والاستشهاد فى الدين ، فكان الناس ينساقون وراء الخطيب المحرض من القرى والدساكر ويتسابقون إلى المعركة كأنهم إلى نصب يوفضون .

ولقد أوحى القرن الرابع الهجرى وما وقع فيه من غزوات سيف الدولة ضد الروم إلى خطيب بارع كابن نباتة الفارقى أن يصنع فى الجهاد خطباً كثيرة بجانب خطبه فى الوعظ والجمع والأعياد ، فكان له على أعواد المنابر فى حلب والموصل من الخطب الجياد ما للشاعر المتنبي على دوحة الشعر من أروع القصيد، وأقوى النشيد . ومن خطبه القوية فى الحث على قتال الروم قوله : « من وصل حبل الله أوصله ، ومن أخمل حقه أخمله ، ومن قعد عن نصرته خذله ، ومن كان [لله] كان الله له . . . فانفروا رحمكم الله كما أمركم إلى جهاد عدوه ، واعلوه بالمغار عليه قبل مغاره عليكم وعلوه ، وانتهزوا الفرصة فيه بتشاغله قبل خلوه ، وانهضوا إليه قبل نهوضه إليكم ودنوه . فإنكم إن قعدتم عن جهاده نهض إليكم ، وإن لم تنصروا الله نصره عليكم ، كدأبه فيمن رأيتموه من أهل الثغور ، الذين أحل بهم دواهى الأمور ، ولقد كانوا أكثر منكم جهاداً ، وأوفر عدداً واستعداداً ، أبلاهم الله بما شيب رأس الوليد ، وأطفأ من صدور أكثرهم نور التوحيد ، وأصار الصابرين منهم إلى [ا]لأسر وثقل الحديد ، وأسلم من سلم منهم إلى التشتيت والتبديد » .

ومن أقدم ما وصل إلينا من خطب الحرب والحض على القتال خطبة هانئ ابن قبيصة الشيبانى التى يحرض فيها قومه على العجم فى يوم ذى قار ، وهو من أيام العرب المشهورة ، وفيها يقول : « يا معشر بكر ! هالك معذور ، خير من ناج فرور ، إن الحذر لا ينجى من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا

الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطعن فى ثغر النحور ، أكرم منه فى الأعجاز والظهور ، يا آل بكر ! قاتلوا فما للمنايا من بد » وهى على إيجازها لا تكاد تكون سمطاً منتظماً ، أو سلكاً متصلا ، وإنما هى حكم متناثرة ، وجمل مستقلة تدور حول الصبر ، وملاقاة الموت استقبالا لا استدباراً ، والإقدام حيث لا مفر من القضاء المسطور ، والأجل المقدور .

وقد اقتضت طبيعة الفتح العربى وانسياح المسلمين فى الأرض الواسعة نشراً لدين الله ، أن يجتمع لنا من خطب الحروب والقتال قدر يحسب فى ثراء الأدب العربى ، وكانت الخطب أول أمرها تميل إلى الإيجاز الدال على القصد ، البالغ الهدف فى غير ترداد ولا تطويل . ومن أمثلة ذلك خطبة أبى بكر يندب الناس لفتح الشام قائلا : « ألا إن لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهى حسبه ، ومن عمل لله كفاه الله ، عليكم بالجد والقصد ، فإن القصد أبلغ ، ألا إنه لا دين لمن لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له ، ألا وإن فى كتاب الله من الثواب على الجهاد فى سبيل الله ، كما ينبغى للمسلم أن يحب أن يُختصّ به ، هى التجارة التى دل الله عليها ، ونجى بها من الخزى ، وألحق بها الكرامة فى الدنيا والآخرة » .

ولم تقل النساء الخطيبات عن الرجال شأناً فى ميدان التحريض على القتال فهذه الخنساء الشاعرة الباكية ، حضرت حرب القادسية ، ومعها أبناؤها الأربعة ، فخطبت فيهم قائلة : « يا بنى ! أنتم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة : ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجّنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم . وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم فى حرب الكافرين . واعلموا أن الدار الباقية ، خير من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل : « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » فإذا أصبحتم غداً ، فاغدوا إلى

قتال عدوكم مستبصرين ، ولله على أعدائه مستنصرين » .

ولقد أنتجت لنا الفتنة التي نكب بها المسلمون بما حدث من خلاف بين علي ومعاوية طائفة من الخطب الملتهبة في الحث على خوض الغمرات ، والدخول في المعمعة . وهي حروب لم تكن من الكتلة الإسلامية ضد أعدائها ، ولكنها كانت داخل صفوف المسلمين ، وبين أبناء الملة الواحدة .

وتتسم خطب علي في هذه الفتن بما فيها من حرارة الدعوة ، وصدق العاطفة ، وشدة الحملة على الأمويين ، وقوة الغضبة في سبيل الله ، وكثرة الغيرة على الحق المهضوم ، والإيمان بالفكرة الثابتة ، والوعد بالظفر . ومن خطبه في الجهاد قوله : « إن الله قد أكرمكم بدينه ، وخلقكم لعبادته ، فانصبوا أنفسكم في أداء حقه ، وتنجزوا موعوده ، واعلموا أن الله جعل أمراس الإسلام متينة ، وعراه وثيقة ، ثم جعل الطاعة حظ الأنفس ، ورضا الرب ، وغنيمة الأكياس عند تفريط العجزة. وقد حملتُ أمر أسودها وأحمرها ، ولا قوة إلا بالله ، ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سَفِهَ نفسه ، وتناول ما ليس له ، وما لا يدركه : معاوية وجنده ، الفئة الطاغية الباغية ، يقودهم إبليس ، ويبرق لهم ببارق تسويفه ، ويدليهم بغروره ، وأنتم أعلم الناس بالحلال والحرام ، فاستغنوا بما علمتم ، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان ، وارغبوا فيما عنده من الأجر والكرامة . واعلموا أن المسلوب من سلب دينه وأمانته ، والمغرور من آثر الضلالة على الهدى ، فلا أعرفن أحداً منكم تقاعس عني ، وقال : في غيري كفاية ، فإن الذود إلى الذود إبل [1] — ومن لا يذد عن حوضه يتهدم .

ثم إني آمركم بالشدة في الأمر ، والجهاد في سبيل الله ، وألا تغتابوا مسلماً ، وانتظروا النصر العاجل من الله ، إن شاء الله » .

---

(١) الذود : ثلاثة جمال إلى عشرة . وهذا مثل معناه أن القليل إلى القليل كثير .

وإذا كان فى هذه الخطبة بعض الطول فإن فى خطبة الحسن بن على – حينما خرج معاوية قاصداً العراق – إيجازاً أى إيجاز حين قال : « أما بعد : فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وسماه كرهاً ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : «اصبروا إن الله مع الصابرين». فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون . بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه، فتحرك لذلك، اخرجوا – رحمكم الله – إلى معسكركم بالنخيلة ، حتى ننظر وتنظروا ، ونرى وتروا » .

وحينما تهيأ الفاتح المجاهد قتيبة بن مسلم لغزو طخارستان شرقى خراسان سنة ٨٦ هـ لم يجد ما يقيم به أود خطبته الحربية إلا كلام الله الذى غلب على كلامه ، حتى كادت خطبته كلها تكون من آى القرآن الكريم الحاثة على الاستشهاد والجهاد والقتل فى سبيل الله . وكذلك كانت خطبته الوجيزة حين تهيأ لغزو بلاد السغد سنة ٩٣ هـ .

ولعل أولى الخطب الحربية بالذكر هنا خطبة طارق بن زياد التى خطبها فى فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ يحث بها المسلمين على الجهاد ، ويرغبهم فى الشهادة فى سبيل الله . وفى أحد نصوصها التى رواها « نفح الطيب » و « ووفيات الأعيان» يبسط لهم الآمال ، ويعدهم الوعود ، ويغريهم بمحاسن الأندلس ومفاتنها والحسان فيها ، كقوله : « وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان » .

خطب الفتوح

تتصل خطب الفتوح بالخطب الحربية أوثق اتصال ، فهى تأتى فى أعقاب

الحرب تعقيباً على الفتح ، وتعليقاً على النصر ، وتمكيناً للظفر ، وتهنيئاً بالنتيجة . وقد تكون خطب الفتح فى أخريات المواقع ،وقبل نتائجها المعلومة ، وخواتيمها المحتومة . كخطب قواد المسلمين بين يدي يزدجرد ملك الفرس حين أمرهم عمر بن الخطاب أن يدخلوا على كسرى ويخطبوا بين يديه داعين إلى التسليم فى معركة مضمونة النتائج ، معروفة العواقب .

ومن مأثور خطب الفتوح خطبة عتبة بن غزوان بعد فتح الأبلّة — مكان البصرة الحالية — فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وفيها يقول : « أما بعد : فإن الدنيا قد تولت حذّاء [١] مدبرة ، وقد آذنت أهلها بصرم [٢] ، وإنما بقى منها صبابة كصبابة [٣] الإناء يصطبّها صاحبها ، ألا وإنكم مفارقوها لا محالة ، ففارقوها بأحسن ما يحضركم ، ألا وإن من العجب أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الحجر الضخم يلقى فى النار من شفيرها ، فيهوى فيها سبعين خريفاً ، ولجهنم سبعة أبواب ما بين البابين منها مسيرة خمسمائة سنة ، ولتأتين عليها ساعة وهى كظيظ بالزحام . ولقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابع سبعة ، ما لنا طعام إلا ورق البشام [٤] ، حتى قرحت أشداقنا ، فوجدت أنا وسعد بن مالك تمرة ، فشققتها بينى وبينه نصفين ، والتقطتُ بردة فشققتها بينى وبينه ، فأتزرت بنصفها ، وأتزر بنصفها ، وما منا أحد اليوم إلا وهو أمير على مصر من الأمصار ، وإنه لم يكن نبوة قط إلا تناسختها جبرية [٥] ، وأنا أعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيما ، وفى أعين الناس صغيراً ، وستجربون الأمراء من بعدى ، فتعرفون وتنكرون » .

---

(١) حذاء : سريعة ماضية .
(٢) الصرم : القطع .
(٣) الصبابة : البقية من الماء فى الإناء .
(٤) البشام : شجر عطر الرائحة يستاك به .
(٥) الجبرية : الجبروت .

وهنا فى مقام الفتح والنصر ، حيث مظنة الغرور والزهو ، لا نرى إلا قائداً متواضعاً ، يستصغر النصر فى عينيه خشية أن تأخذه العزة بالغرور .

ومن خطب الفتوح خطبة عبد الله بن الزبير ، وقد شهد فتح إفريقية فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، فقدم عليه يخبره مشافهة بخبر فتحها ، فأمره عثمان أن يخطب فى ذلك ، فخطب خطبة طويلة ذكرها صاحب « العقد الفريد» وليس يتسع المجال لذكرها هنا ، إلا أننا نذكر من طريف أمرها أنها أول خطبة خطبت بجانب المنبر لا على المنبر نفسه ، فإن الخليفة عثمان كان واقفاً على المنبر حين كان عبد الله يخطبها وهو على جانب المنبر .

خطب المناظرة

تكثر خطب المناظرة حين تنقسم الكلمة ، وتشتد الفرقة ، وتتسع الهوة بين فريق وفريق ، وهى ليست من خطب المفاخرات وإن كانت تشتمل على شيء من الفخر ، لأن الخطباء المتناظرين حين يحملون على خصومهم ، ويذمون سبيلهم لا ينسون أن يفتخروا بقومهم ويذكروا فضائلهم . وقد راجت خطب المناظرة عند ما اشتد الخلاف بين على ومعاوية ، وبين أهل العراق من ناحية وأهل الشام من ناحية أخرى ، وبين هؤلاء وبين الخوارج الذين خرجوا على الفريقين وسلكوا لهم طريقاً خاصة بهم لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

ومن أروع خطب المناظرات خطبة الإمام على حين كان الخوارج يخاصمون عبدالله بن عباس رسول علىّ إليهم . فقد خرج إليهم الإمام نفسه وخطب فيهم قائلا : « اللهم إن هذا مقام من أفلج فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة ، ومن نطق فيه وأوعث فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا . ثم قال لهم : من زعيمكم ؟ قالوا : ابن الكوّاء . قال على : فما أخرجكم علينا ؟ قالوا حكومتكم يوم صفين .

قال : أنشدكم بالله أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف ، فقلتم نجيبهم إلى كتاب الله ، قلت لكم إنى أعلم بالقوم منكم، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن! إنى صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا ، فكانوا شر أطفال، وشر رجال . امضوا على حقكم وصدقكم ، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة وإدهاناً ومكيدة ، فرددتم علىّ رأيي ، وقلتم لا بل نقبل منهم ، فقلت لكم : اذكروا قولى لكم ،ومعصيتكم إياى . فلما أبيتم إلا الكتاب اشترطت على الحكمين أن يُحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن . فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكماً يحكم بما فى القرآن ، وإن أبيا فنحن من حكمهما برآء . قالوا له : فخبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء ؟ قال : إنا لسنا حكمنا الرجال ، إنما حكمنا القرآن . وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق ، إنما يتكلم به الرجال . قالوا : فخبرنا عن الأجل ، لم جعلته فيما بينك وبينهم ؟ قال : ليعلم الجاهل ، ويتثبت العالم ، ولعل الله عز وجل يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة . ادخلوا مصركم رحمكم الله ! »

فهنا حِجاج منطق ، وأدلة وبراهين ، تفحم المكابر ، وتدحض الباطل ، وتثبت الخروج عن الطريق ، والحيدة عن كتاب الله فى أسلوب يضبط النفس من الانفعال ، ويقوى بها على الاستدلال .

ومن خطب المناظرات ما تناظر به عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص أمام معاوية ، حينما نال ابن العاص من الإمام على فى مجلس معاوية . فلقد ثار ابن جعفر وحسر عن ذراعيه ، واستل غرب لسانه ، شديد اللهجة عنيف العبارة ، حتى بلغ به الحد أن يقول لمعاوية : « يا معاوية ! حتام نتجرع غيظك ، وإلى كم الصبر على مكروه قولك ، وسيئ أدبك، وذميم أخلاقك ؟ هبلتك الهبول ! أما يزجرك ذمام المجالسة عن القذع لجليسك ، إذا لم تكن لك حرمة من دينك تنهاك عما لا يجوز لك ؟ »

ولا يفوتنا هنا فى مقام يصرفنا الضيق فيه على الاتساع أن نشير إلى مناظرة الخليفة عمر بن عبد العزيز لبعض الخوارج بالجزيرة سنة ١٠٠ هـ ، فقد نقموا عليه بعض أمور فى خلافته ، وكان خطيبا الخوارج يناظرانه ويناظرهم ، فى حجج متتابعة ، وأدلة متوالية ، ولكن فى غير سرف أو خروج عن أدب المناظرة .

أما المناظرة التى ذكرها صاحب « العقد الفريد » بين الحسن بن على رضى الله عنه ومروان بن الحكم فى مجلس معاوية ، ففيها من السرف فى القول والإقذاع فى الهجو ما نميل إلى الافتعال فيه إجلالا لأهل البيت أن ينسب إليهم ما طهر الله قلوبهم وألسنتهم عنه .

خطب الدين والوعظ

ما استغنت جماعة عن متكلم يرشدها إلى صوابها ، ويهديها إلى معالم الخير ، ويبث فيها من المكارم ومحاسن الخلق ما تدعو إليه الأديان جميعاً ، حين أراد لها الله أن تكون للناس هداية وطريقاً إلى حياة نقية سليمة ، لا يدنسها رجس ، ولا يلطخها إثم ، ولا تميل بها رذيلة .

وخذ أى دين شئت غير الأديان السماوية المقدسة تر فيه خطباء يدعون الناس إلى الخير كما تصوروه ، وإلى الحق كما عرفوه .

وخذ أدباً غير الأدب العربى الذى نؤرخ هنا للخطابة فيه ، تر الأدب الفرنسى مثلا وقد ازدحم بطائفة كثيرة من خطباء دينيين عرفتهم منابر المسيحية واهتزت لهم ، مثل سان فرنسوا دى سال فى القرن السابع عشر ، وبوسويه صاحب العظة المشهورة حول « القانون الإلهى » و « العناية الألهية » و « وحدة الكنيسة » ، وفنيلون الخطيب الفرنسى المشهور فى القرن الثامن عشر ، صاحب الخطبة الدينية المشهورة فى « إثبات وجود الله » وغيرهم .

وإذا طوينا القرون القهقرى حتى نبلغ العصر الجاهلى وجدنا خطباء نهجوا

منهجاً دينياً وعظياً يدعو إلى التدبر والنظر فى آفاق السماء وبدائع الأرض وما فى ذلك كله من دلالة على إله بارئ ، وخالق قادر ، ويوم آخر ، تجازى فيه كل نفس ما عملت . وإذا تركنا جانباً خطبة قس بن ساعدة الإيادى لاشتهارها وتداولها ، فإن النصفة تقتضينا أن نذكر خطبة المأمون الحارثى ، وكأنها ترجمة عربية أخرى لخطبة ابن ساعدة . وهذه هى :

« أرعونى أسماعكم ، وأصغوا إلىّ قلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد . طمح بالأهواء الأشر ، وران على القلوب الكدر ، وطخطخ (١) الجهل النظر ، إن فيما ترى لمعتبرا لمن اعتبر . أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتغرب ، وقمر تطلعه النحور ، وتمحقه أدبار الشهور ، وعاجز مثر ، وحُوَّل (٢) مكْد ، وشاب مختضر (٣) ، ويفن قد غبر (٤) ، وراحلون لا يؤوبون ، وموقوفون لا يفرطون ، ومطر يرسل بقدر ، فيحيي البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهَر ، وماء يتفجر ، من الصخر الأبر (٥) فيصدع المدر ، عن أفنان الخضر ، فيحيي الأنام ، ويشبع السوام ، وينمى الأنعام . إن فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر ، البارىء المصور . يأيها العقول النافرة ، والقلوب الثائرة ، أنى تؤفكون ؟ وعن أى سبيل تعمهون ؟ وفى أى حيرة تهيمون ؟ وإلى أى غاية توفضون (٦) ؟ لو كشفت الأغطية عن القلوب ، وتجلت الغشاوة عن العيون ، لصرح الشك عن اليقين ، وأفاق من نشوة الجهالة ، من استولت عليه الضلالة » .

---

(١) طخطخ : أظلم .
(٢) حول : شديد الاحتيال على الأمر .
(٣) مختضر : يموت صغير السن .
(٤) اليفن : الشيخ الكبير .
(٥) الأبر : الصلب .
(٦) توفضون : تسرعون .

وقد كان للنبى عليه السلام وللخلفاء الراشدين من بعده ولبعض الخلفاء بعد ذلك من الخطب الدينية وكلمات الوعظ ما يرقق القلوب ، ويسيل الدموع ، ويبلغ مواطن العبرة ، ويرتفع إلى قمة النصح والقبول ، لأنها صادرة من القلب إلى القلب . لا تعتمد على صنعة ولا بيان ولا زخرفة قول ، وإنما تعتمد على الصدق والحق واستواء القصد ، كخطبة النبى عليه السلام التى يقول فيها : « أيها الناس ! كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذى نشيع من الأموات سفر ، عما قليل إلينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم ، ونأكل من تراثهم ، كأنا مخلفون بعدهم ، ونسينا كل واعظة ، وأمنا كل جائحة . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس . طوبى لمن أنفق ما لا اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة . طوبى لمن زكت وحسنت خليقته ، وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة ، ولم تستهوه البدعة » .

وأكثر هذه الخطب الدينية الواعظة ، والكلمات الرقيقة الناصحة كانت تقال فى أيام الجمع والعيدين ، وكانت تدور حول ذم الدنيا والتهوين من خطبها ، والتقليل من شأنها ، حتى لا يتشاغل الناس بها عن استقامة دينهم ، وصلاح أمرهم . وكثيراً ما كان يجزىء فيها القصر عن الطول ، وتغنى فيها الوجازة عن التطويل . كخطبة معاوية فى دمشق : « أيها الناس ! سافروا بأبصاركم فى كر الجديدين ، ثم ارجعوها كليلة عن بلوغ الأمل . فإن الماضى عظة للباقى ، ولا تجعلوا الغرور سبيل العجز عن الجد ، فتنقطع حجتكم فى موقف الله سائلكم فيه ، ومحاسبكم فيما أسلفتم . أيها الناس ! أمس شاهد فاحذروه . واليوم مؤدب فاعرفوه ، وغداً رسول فأكرموه ! »

وكخطبة عمر بن عبد العزيز التى يقول فيها : « أيها الناس ! إنما الدنيا أمل

محترم ، وأجل منتقص ، وبلاغ إلى دار غيرها ، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج ، فرحم الله امرأ فكر فى أمره ، ونصح لنفسه ، وراقب ربه ، واستقال ذنبه ، ونور قلبه . أيها الناس ! إن أباكم قد أخرج من الجنة بذنب واحد ، وإن ربكم وعد على التوبة ، فليكن أحدكم من ذنبه على وجل ، ومن ربه على أمل » .

وأكثر الخطب الدينية والمواعظ أثراً فى النفس ، وبلوغاً إلى القلب ، وتأثيراً فى السامع ما كان عن مطابقة حقيقية بين القول والفعل ، وما كان صدى مستقيماً لسلوك مستقيم ، وخلق قويم . وإلا كان تقليداً ومحاكاة ، فيذهب من النفوس أثره ، ويضيع من السامعين تأثيره . فمقبول أن يعظ عمر بن عبد العزيز وينصح وهو من هو فى دينه وتقيته ، وأخلاقه وسيرته . ومقبول أن يعظ الخليفة عبد الملك بن مروان ، فيقول : « أيها الناس ! اعملوا لله رغبة ورهبة ، فإنكم نبات نعمته ، وحصيد نقمته ، ولا تغرس لكم الآمال ، إلا ما تجتنيه الآجال ، وأقلوا الرغبة فيما يورث العطب ، فكل ما تزرعه العاجلة ، تقلعه الآجلة . واحذروا الجديدين ، فهما يكرّان عليكم . إن عقبى من بقى لحوق بمن مضى ، وعلى أثر من سلف ، يمضى من خلف . فتزودوا فإن خير الزاد التقوى » . ومقبول أن يخطب الخليفة المهدى العباسى خطبة دينية فى الوعظ والنصح يقول فيها : « . . . فإن الدنيا دار غرور ، وبلاء وشرور ، واضمحلال وزوال ، وتقلب وانتقال ، قد أفنت من كان قبلكم ، وهى عائدة عليكم وعلى من بعدكم . من ركن إليها صرعته ، ومن وثق بها خانته . ومن أملها كذبته ، ومن رجاها خذلته ، عزها ذل ، وغناها فقر ، والسعيد من تركها ، والشقى فيها من آثرها ، والمغبون فيها من باع حظه من دار آخرته بها . فالله الله عباد الله ! والتوبة مقبولة ، والرحمة مبسوطة ، وبادروا بالأعمال الزكية ، فى هذه الأيام الخالية ، قبل أن يؤخذ بالكظم ، وتندموا فلا تنالون الندم ، فى يوم حسرة وتأسف ، وكآبة وتلهف ، يوم ليس كالأيام ، وموقف

ضنك المقام » . ومقبول أن يخطب الخليفة هرون الرشيد العباسى خطبة دينية وعظية يقول فيها : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن فى التقوى تكفير السيئات ، وتضعيف الحسنات ، وفوزاً بالجنة ، ونجاة من النار ، وأحذركم يوماً تشخص فيه الأبصار ، وتعلن فيه الأسرار ، يوم البعث ، ويوم التغابن ، ويوم التلاق ، ويوم التناد ، يوم لا يستعتب من سيئة ، ولا يزداد من حسنة . . . إنكم سفر مجتازون ، وأنتم عن قريب تنتقلون ، من دار فناء ، إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالأمانة ، فإن الله — تعالى ذكره — أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمنيبين »

نعم ! مقبول أن تسمع هذه العظات البينة ، والنصائح الطيبة من خلفاء أمويين وعباسيين أحسنوا السيرة ، وخافوا الله فى الرعية ، ولم تطوح بهم المطامع والأهواء عن جادة الرفق والعدل . ولكن الذى لا يقبل أن يقف الحجاج بن يوسف — على كثرة ما سفك من الدماء ، وأذل من نخوة العرب ، وخضد من شوكة المسلمين — فيعظ على منابر العراق قائلا : « أيها الناس ! قد أصبحتم فى أجل منقوص ، وعمل محفوظ . رب دائب مضيع ، وساع لغيره ، والموت فى أعناقكم ، والنار بين أيديكم ، والجنة أمامكم . خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما فى أيديكم لما بين أيديكم ؛ فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل ما ترونه فإنه ذاهب . هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التى طلعت على التبابعة والأكاسرة ، وخزائنهم السائرة بين أيديهم ، وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم . أين الملوك الأولون ؟ أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسب الله ! والصراط منصوب ! وجهنم تزفر وتتوقد ، وأهل الجنة ينعمون ، فى روضة يحبرون ! جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً »

نعم هذا وعظ رجل زاهد فى الدنيا ، خائف من الأجل ، مصغر لما كبر وعظم

من متاع الدنيا ، لاوعظ الثقفى الذى كان دعامة للملك الأموى ، ومتشبثاً فى الحكم ، وحريصاً على شهوة الدنيا كأكثر ما يكون الناس حرصاً . ولهذا كان الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه يقول : « ألا تعجبون من هذا الفاجر ؟ يرقى عتبات المنبر ، فيتكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبارين ؟ يوافق الله فى قوله ، ويخالفه فى فعله » .

وليس الحجاج بن يوسف نسيج وحده فى مخالفة القول للفعل فى باب الخطابة الدينية والمواعظ ! فهناك معاصره وضريبه فى الفصاحة وفى الشدة والقسوة — وخاصة حينما ولى مكة من قبل الوليد بن عبد الملك سنة ٨٩ هـ — هناك خالد بن عبد الله القسرى الذى كان متهماً فى دينه — كما يقول المؤرخون — ومع هذا فله خطب فى المواعظ والحكم والحث على مكارم الخلق ، كخطبته التى خطبها على منبر مدينة واسط ، وفيها يقول : « أيها الناس ! نافسوا فى المكارم ، وسارعوا إلى المغانم ، واشتروا الحمد بالجود ، ولا تكسبوا بالمطل ذما ، ولا تعتدّوا بالمعروف ما لم تعجلوه ، ومهما يكن لأحد منكم عند أحد نعمة فلم يبلغ شكرها ، فالله أحسن لها جزاء ، وأجزل عليها عطاء . واعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمة من الله عليكم ، فلا تملوا النعم ، فتحولوها نقماً . واعلموا أن أفضل المال ما أكسب أجراً ، وأورث ذكراً ، ولو رأيتم المعروف رجلا رأيتموه حسناً جميلا يسر الناظرين ، ولو رأيتم البخل رجلا رأيتموه مشوهاً قبيحاً تنفر عنه القلوب ، وتغضى عنه الأبصار .

أيها الناس ! إن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه ، وأعظم الناس عفواً من عفا عن قدرة ، وأوصل الناس من وصل من قطعه . ومن لم يطب حرثه ، لم يزْكُ نبته ، والأصول عن مغارسها تنمو ، وبأصولها تسمو . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

وأياما كان الأمر فإن خالداً القسرى لم يخالف قوله فعله إلا حين يدعو إلى الرحمة وهو قاس ، وإلى الدين وهو متهم ، وإلى التذكر وهو غافل مبسوط حبال

الأمل . . . أما حين يدعو إلى الجود بالمال ، وحسن العطاء ، وجميل البذل فهو معبر عن حقيقة نفسه ، فقد كان من أجواد العرب ، كما كان من بلغائهم فى الخطابة .

وإذا كان لبعض الخلفاء والأمراء والعمال والولاة مواقف على المنابر يعظون الناس فيها ، ويدلونهم على سبيل الخير غير ذى عوج ، وعلى طريق الله الموصل إلى رحمته ، وعلى صنائع المعروف التى تقى مصارع السوء ، فقد كان لكثير من الخلفاء وعاظ يخطبون فيهم ، ويذكرونهم إذا نسوا ، وينبهونهم إذا غفلوا ، ويخوفونهم يوماً يرجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما عملت ، فلا تظلم شيئاً ، ولاتبخس حقا . كما فعل عمرو بن عبيد المعتزلى المتوفى سنة ١٤٤هـ حين قام بين يدى الخليفة المنصور يعظه بعد ما بايع للمهدى ، فقد دخل عمرو على المبايع والمبايع ، فقال له المنصور : يا أبا عثمان ! هذا ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين . فقال له عمرو : « يا أمير المؤمنين ! أراك قد وطدت له الأمور ، وهى تصير إليه ، وأنت عنه مسئول . فاستعبر المنصور ، وقال له : عظنى يا عمرو ! قال : « يا أمير المؤمنين ! إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منها ببعضها ، وإن هذا الذى فى يديك لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك . فاحذر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده ، فوجم أبو جعفر المنصور من قوله ، فقال له الربيع : يا عمرو ! غممت أمير المؤمنين ! فقال عمرو : إن هذا صحبك عشرين سنة ، لم ير لك عليه أن ينصحك يوماً واحداً ، وما عمل وراء بابك بشىء من كتاب الله ولا سنة نبيه . قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قد قلتُ لك : خاتمى فى يدك ، فتعال وأصحابك فاكفنى ! قال عمرو : ادعنا بعدلك ، تسخُ أنفسنا بعونك ، ببابك ألف مظلمة . . . اردد منها شيئاً نعلم أنك صادق ! »

وليس بعد هذه المجابهة بالحق ، والمواجهة بالنصح مقام لواعظ فى الله ، لا تأخذه فى الله لومة ، ولا يخاف فى سبيل الله غضب غاضب .

ولقد كان الخليفة المنصور لا يضيق صدره بموعظة ، ولا يشمخ بانفه عن نصيحة ، حتى كثر بمجلسه الخطباء الوعاظ ، حين وجدوا منه حسن الاستماع ، ووجد منهم صدق النصح . ومن هؤلاء ذلك الواعظ الزاهد الذى وعظه بخطبة طويلة تلين بها أقسى القلوب ، قال منها : « يا أمير المؤمنين ! إن للناس أعلاماً يفزعون إليهم فى دينهم ، ويرضون بهم ، فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم فى أمرك يسددوك ، قال : قد بعثت إليهم فهربوا منى . قال : خافوا أن تحملهم على طريقتك ! ولكن افتح بابك ، وسهل حجابك ، وانصر المظلوم ، واقمع الظالم ، وخذ الفىء والصدقات مما حل وطاب ، واقسمه بالحق والعدل على أهله ، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويسعدوك على صلاح الأمة » (١) .

ومن وعاظ المنصور أيضاً الإمام الأوزاعى ، وله فى وعظه خطبة طويلة يقول منها : « واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم ، عرض على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنه وأشفقن منه . وقد جاء عن جدك فى تفسير قول الله عزوجل : « لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » أن الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك . وقال : فما ظنكم بالكلام وما عملته الأيدى؟ فأعيذك بالله أن يخيل إليك أن قرابتك برسول لله صلى الله عليه وسلم تنفع من المخالفة لأمره . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا صفية عمة محمد ! ويا فاطمة بنت محمد ! استوهبا أنفسكما من الله ، إنى لا أغنى عنكما من الله شيئاً . وكان جدك الأكبر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة ، فقال : أى عم ! نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها . نظراً لعمه ، وشفقة عليه أن يلى فيجور عن سنته جناح بعوضة ، فلا يستطيع له نفعاً ، ولا عنه دفعاً . هذه نصيحتى إن قبلتها فلنفسك عملت ، وإن رددتها فنفسك بخست . والله الموفق للخير والمعين عليه » .

(١) تروى كتب الأدب أن المنصور طلب ذلك الخطيب الواعظ بعد الصلاة فلم يجده !

أما وعاظ الولاة فمنهم أبو زهمان العلانى الذى دخل على سعيد بن مسلم حين كان والياً على أرمينية ، فخطبه بموعظة يقول منها : « هذا الأمر الذى صار إليك فى يديك ، كان فى يد غيرك ، فأمسوا والله حديثاً ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . فتحبب إلى عباد الله بحسن البِشر ، ولين الجانب ، فإن حب عباد الله موصول بحب الله ، وبغضهم موصول ببغض الله ، لأنهم شهداء الله على خلقه ، ورقباؤه على من اعوج عن سبيله » . ومنهم أبو رندقة الطرطوشى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ الذى خطب الأفضل بن أمير الجيوش يعظه قائلا : « إن الأمر الذى أصبحت فيه من الملك ، إنما صار إليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج عن يدك ، بمثل ما صار إليك . فاتق الله فيما حولك من هذه الأمة ، فإن الله عز وجل سائلك عن النقير ، والقطمير ، والفتيل [١] » .

هذه هى خطب الوعظ والدين حين كانت تخرج من أفواه أصحابها بعيدة عن الصنعة ، مجانبة للتكلف . صادرة عن صدق المعتقد ، وصحة اليقين . ولكنها بعد ذلك صارت عملا بيانياً لا يقصد لصدقه أكثر مما يطلب لصنعته . فأصبحت نغمة مكررة ، وعبارة معادة ، حتى كادت تملها الأسماع ، وسئمها الناس حتى كانوا يصدفون عنها ، وينفرون منها .

وممن أغرق فى صناعة الخطب «ابن نباتة الفارق» من خطباء المسلمين فى القرن الرابع الهجرى ، وعلى الرغم من خطبه فى الجهاد والوعظ والدعاء والجمع والأعياد فإنه كان خطيباً صناعياً أكثر مما كان خطيباً مفطوراً . ولعل ابن الأثير كان على حق حين انتقده فى اختيار اللفظ ، وفى تكرار السجع ، وكثرة ترديده على معنى واحد ، وفى كثرة المحسنات البديعية والتزويق .

ومع اعترافنا بفضل ابن نباتة ومقدرته الخطابية فإن النماذج المتعددة

---

(١) النقير : النقرة فى ظهر النواة . القطمير : القشرة الشفافة الرقيقة بين النواة والتمرة . والفتيل : ما يكون فى شق النواة . والمراد أن الله سائلك عن كل شىء مهما صغر .

التى وضعها لتلقى فى مناسبات الأعياد والمواسم ، وفى خطب الزواج ، قد أصابت الخطابة العربية بنكسة بعد ازدهارها وقوتها ، فإن الخطباء حفظوا هذه النماذج ، وصاروا يلقونها من على المنابر ، ويرددونها فى المناسبات حتى أصبحت أحاديث مملولة من كثرة تكرارها وتعاورها على المنابر ، واستغنى بها خطباء المساجد وأئمة الوعظ عن ارتجال الخطب الملائمة أو إعدادها ، استجابة للظروف ، ومشاركة فى الأحداث الجارية التى ما شرعت الخطابة الدينية فى الإسلام إلا لتعالجها بما فيه صلاح المسلمين .

ولقد انحدرت بعد ذلك الخطب الدينية والمواعظ ، ومشت مع عصور التأخر جيلا بعد جيل ، حتى بلغت من الركاكة والضعف والتفاهة ما لا نعدم عليه عشرات من الشواهد التى نؤثر مجافاتها هنا ، وتأثرت فوق ضعف الوازع ، بالضعف الأدبى واللغوى الذى ساد العربية فى عصور انحطاطها ، إلى أن جاءت النهضة الحديثة فجددت الآمال فى فن يرجى له الازدهار ، حتى يكون صدى حقيقياً لنهضة العرب والعربية فى العصر الحديث .

خطب المدافعة والاتهام

إن خطب المدافعة والاتهام أوسع باباً وأرحب مدخلا من أن تسمى الخطب القضائية ، كما جرت عادة مؤرخى الأدب الحديث حين يقسمون الخطب إلى أنواع . فإن دفاع خطيب عن موقف له أو عن أحد قرابته أو عن مواقف أهله وقبيله ، أو دفع ما يتهمون به ، قد لا يكون من الخطابة القضائية بمفهومها فى العصور القديمة أيام أرسطو ، أو بمفهومها فى العصور الحديثة ، كالذى نسمعه من خطب الدفاع والاتهام فى ساحة القضاء .

والحق أن الخطب التى كان يدافع بها أهل البيت وشيعة علىٍّ عن أنفسهم أيام الخلافات بين الأمويين والهاشميين هى من خطب المدافعة

التى لا يجدر إغفالها عند التأريخ للخطابة فى الأدب العربى . وهل ينسى موقف محمد بن الحنفية رضى الله عنه حين وقف عبد الله بن الزبير يخطب وينال من الإمام على كرم الله وجهه ، فوقف محمد بن الحنفية يرد على ابن الزبير مدافعاً عن أبيه ومبطلا حجج خصومه قائلا : « يا معشر قريش ! شاهت الوجوه ! أينتقص علىّ وأنتم حضور ؟ إن عليا كان سهماً صادقاً ، أحد مرامى الله على أعدائه ، يقتلهم لكفرهم ، ويهوعهم (١) مآكلهم ، فثقل عليهم ، فرموه بصرفة الأباطيل ، وإنا معشر له على نهج من أمره بنو الحسبة من الأنصار ، فإن تكن لنا الأيام دولة ننثر عظامهم ، ونحسر عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ومن خطب المدافعة فى الأدب العربى ما خطب به أبو عبد الله بن الفخار العالم الأصولى مدافعاً عن القاضى الوحيدى قاضى مالقة، الذى تألب عليه بنو حسون ورموه بمختلف التهم وطعنوا عليه فى أحكامه ، فعقد مجلس قضائى للمدافعة والاتهام أمام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فقام ابن الفخار يخطب مدافعاً عن القاضى المتهم قائلا : « إنه لمقام كريم ، نبدأ فيه بحمد الله على الدنو منه ، ونصلى على خيرة أنبيائه ، محمد الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابته نجوم الليل البهيم . أما بعد ! فإنا نحمد الله الذى اصطفاك للمؤمنين أميراً ، وجعلك للدين الحنيفى نصيراً وظهيراً ، ونفزع إليك مما دهمنا فى حماك ، ونبثُّ إليك ما لحقنا من الضيم ، ونحن تحت ظل علاك ، ويأبى الله أن يدهم من احتمى بأمير المسلمين ، ويصاب بضيم من ادرع بحصنه الحصين . شكوى قمت بها بين يديك ، فى حق أمرك الذى عضده مؤيده ، لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقده ، وإن قاضيك ابن الوحيدى الذى قدمته فى مالقة للأحكام، ورضيت بعدله فيمن بها من الخاصة والعوام ، لم يزل يدل على حسن اختيارك

(١) يهوعهم : يجعلهم يقيئون ما أكلوه .

بحسن سيرته ، ويرضى الله تعالى ويرضى الناس بظاهره وسريرته ، ما علمنا عليه من سوء ، ولا درينا له موقف خزى ، ولم يزل جارياً على ما يرضى الله تعالى ويرضيك ويرضينا ، إلى أن تعرضت بنو حسون للطعن فى أحكامه ، والحد من أعلامه ، ولم يعلموا أن اهتضام المقدَّم ، راجع على المقدِّم ، بل جمحوا فى لجاجهم فعموا وصموا ، وفعلوا وأمضوا ما به هموا ، وإلى السحب يرفع الكف من قد جف عنه مسيل عين ونهر » .

وكان لهذا الدفاع البليغ على إيجازه أثره فى نفس ابن تاشفين ، فلم يقبل تهم خصومه ، ونصره عليهم وأبقاه فى منصبه .

وقد يضطر رجل إلى الدفاع عن نفسه لا عن غيره ، فتتجلى مقدرته فى مثل هذا الموقف الذى يزل فيه الخطباء ، ويعجز فيه البلغاء ، كما دافع « مارات » أحد زعماء الثورة الفرنسية عن نفسه حين رماه أعداؤه بجملة تهم ، فقال فى ختام خطبته القوية المؤثرة : « هل تتهموننى بالطمع ؟ إنى لا أنزل للدفاع عن نفسى ! أمامكم سلوكى فاختبروه ، وأمامكم ماضىَّ فاحكموا عليه . . فإنى لو أردت أن أغضى وأتاجر بهذا الإغضاء لكنت من ذوى الحظوة فى البلاط ، لقد دفنت نفسى فى المحابس ، وألقيت بها فى كل موضع للخطر ، وكانت سيوف مائة ألف سياف تنوشنى من كل جانب ، وكان الموت كامناً يراقبنى بين السيف والنطع ، وما عقد ذلك لسانى عن كلمة الحق . . . فليتحد أولئك الذين يخشون الطغاة معى ومع جميع الوطنيين الصادقين ، وعلينا أن نحث الجمعية الوطنية على التعجيل فى إقرار القوانين التى تضمن للناس السعادة التى ننشدها لهم ، وبعد ذلك أخطو إلى المقصلة ، والفرح يملأ جوانحى ! ! » .

ولقد نصب أرسطو للخطب القضائية أصولا وقواعد يسلكها المحامون حين يدافعون ، ويسلكها الاتهام حين يصب التهم . وإذا كان هم المحامى الأول أن يقلل من شأن الجريمة ، ويهون من أمرها ، فإن من هم ممثل الاتهام أن يجسم من أمر

الجريمة ، ويعظمها فى أعين المحلفين أو القضاة حتى يبلغ الحكم من القسوة حدا يتعادل مع عظم المخالفة .

وخير مثال يحضرنا الآن للتدليل على موقف المحامى المدافع والنائب المتهم هو اتهام النائب العام فى قضية مقتل بطرس باشا غالى على يد إبراهيم الوردانى ، ودفاع المحامى عنه . لقد وقف النائب العام يقول : « إن الوطنية التى يدعى المتهم الدفاع عنها بهذا السلاح المسموم لبراء من مثل هذا المنكر ، إن الوطنية الصحيحة لا تحل فى قلب ملأته مبادئ تستحل اغتيال النفس ، إن مثل هذه المبادئ مقوضة لكل اجتماع . . .

وماذا يكون حال أمة إذا كانت حياة أولى الأمر فيها رهينة حكم متهوس ؟ يبيت ليله ، فيضطرب نومه ، وتكثر هواجسه ، فيصبح صباحه ، ويحمل سلاحه يغشاهم فى دار أعمالهم ، فيسقيهم كأس المنون ؟ ثم إذا سئل فى ذلك تبجح وقال : إنما أخدم وطنى ، لأنى أعتقد أن مثلهم خائنون للبلاد ، ضارون بها . تباً لتلك المبادئ وسحقاً لها ! كيف يقوم لنظام قائمة مع تلك المبادئ الفاسدة ؟ إن مبادئ كل اجتماع أن لا ينال إنسان جزاء على عمل مهما كان هذا الجزاء صغيراً إلا عن يد قضاة ، اشترطت فيهم ضمانات قوية ، وبعد أن يتمكن من الدفاع عن نفسه ، حتى ينتج الجزاء النتيجة الصالحة التى وضع لها من حماية الاجتماع » .

ووقف المحامى المدافع – المرحوم أحمد بك لطفى – يدافع عن وطنية الوردانى قائلا : « أما أنت أيها المتهم ! فقد هِمْت بحب بلادك ، حتى أنساك ذلك الهيام كل شىء حولك . أنساك واجباً مقدساً هو الرأفة بأختك الصغيرة ، وأمك الحزينة ، فتركتهما يبكيان هذا الشباب الغض ! تركتهما يتقلبان على جمر الغضا ! تركتهما يقلبان الطرف حولهما ، فلا يجدان غير منزل مقفر غاب عنه عائله ! تركتهما على ألا تعود إليهما ، وأنت تعلم أنهما لا يطيقان صبرا

على فراقك لحظة واحدة : فأنت أملهما ورجاؤهما !

دفعك حب بلادك إلى نسيان هذا الواجب ، وحجب عنك كل شيء غير وطنك وأمتك ، فلم تعد تفكر فى تلك الوالدة البائسة ، وهذه الزهرة اليانعة ، ولا فيما سينزل بهما من الحزن والشقاء بسبب ما أقدمت عليه .ونسيت كل أملك فى هذه الحياة ! وقلت إن السعادة فى حب الوطن وخدمة البلاد ، واعتقدت أن الوسيلة الوحيدة للقيام بهذه الخدمة هى تضحية حياتك - أى أعز شيء لديك ولدى أختك ووالدتك .. فأقدمت على ما أقدمت راضياً بالموت ، لا مكرهاً ولا حباً فى الظهور ! أقدمت وأنت عالم أن أقل ما يصيبك هو فقدان حريتك ، فى سبيل حرية أمتك بعت حريتك بثمن غال ! » .

ليس فى هذا الاتهام والدفاع مجال لأدلة فقهية ، أو حجج قانونية ، وإنما هو من نظر الاتهام استنكار للتهمة وتهويل لفظاعتها وتصوير لمجافاتها لأصول الاجتماع ، والوطنية الصحيحة الصادقة . . . ومن نظر الدفاع استثارة عاطفية لهيئة القضاة وللشعور الوطنى العام الذى كان سائداً فى تلك الأيام ، وتمجيد للتهمة على أنها حركة وطنية جليلة قام بها المتهم دفاعاً عن وطنه ، وقدم لها أثمن ما يملك امرؤ ، وهو حياته وحريته التى جاد بها فى غير بخل ولا تردد .

وموقف المحامى دائماً أدق من موقف المدعى الموكل بالاتهام ، فالأول تتوقف على خطابته حياة متهم وإبراء ذمة ، وقد يوجه القضية ببلاغته ولباقته وحسن مدخله وجهة تكسب عطف القضاة وتجتذب شعورهم نحوه - أو بالأحرى نحو موكله - وليست خطب المحامى المدافع بلاغة وفصاحة فحسب ، أو اعتماداً على قول معسول حلو المذاق له بريق ولكنه لا يلبث أن يخبو ، ولكنها لفتات ذهنية حادة ، ويقظات واستبصار ، وتنبه لما يجدُّ فى القضية من ملابسات أو تحولات ، وكياسة فى اجتذاب القضاة واستمالتهم فى رفق ولين ، وحسن احتيال على استدراج مجاري التفكير بين القضاة والدفاع إلى جهة واحدة ، هى الوجهة التى يريدها المحامى لكسب قضيته .

ولا تنفع البلاغة اللفظية وحدها فى كسب القضية ما لم يقم بجانبها قدر كبير من الفطنة ، والفقه القضائى ، والأدلة نقضاً وإبراماً ، حتى تسعف الفصاحة الدليل، وتبرزه على أتم صورة يتم بها إقناع القضاة واستمالتهم .

على أنا ونحن نشيد ببلاغة الدفاع أو فصاحة الاتهام لا يفوتنا أن نشير إلى أدب الخطب القضائية عامة ، وهو ذلك الأدب الذى يسمو بها عن أن تكون مجالا للسباب ، أو ميداناً للإقذاع ، أو وسيلة من وسائل التجريح والتشهير وتناول الشخصيات بما يترفع عنه أصحاب النفوس الكبيرة . والحق أن التشهير ، بالخصم أمام المنصة المقدسة لا يضفى من القوة ما قد يتوقعه المشهر ، وقد يكون فيه من الضعف ما يوهن القضية . وخير من هذا أن يلجأ الخطيب القضائى إلى الصدق، والوضوح ، وجلاء الوقائع ، وتفنيد الحجج ، وإزالة الشبه ، من غير جنوح إلى الخوض فى مسائل ينأى عنها المدره الكريم .

إلا أن تحرجنا من العنف فى التشهير فى الخطب القضائية وفى مواقف الدفاع والاتهام لا يحجب عن عيوننا حقيقة أخرى رفعت بعض المحامين إلى مراتب الخلود، بما أودعه الله فى فطرهم من الجرأة التى لا تخشى فى سبيل الحق شيئاً .

فإن الشجاعة فى مواقف الدفاع مطلب لا يناله إلا أبطال المدافعين . وقد سجل التاريخ للمحامى « ديسيز » موقفاً رائعاً حين وقف يدافع عن الملك لويس السادس عشر أمام الجمعية التأسيسية . لقد كان موقف الملك واهناً واهياً أمام تلك الجمعية التى ضمت قواد الثورة من أمثال دانتون ومارات وروبسبيير ، ومع ذلك فقد وقف « ديسيز » يدافع عن الملك المخذول قائلا : « أيها المواطنون ! سأخاطبكم بلسان الرجل الحر ! إنى أبحث بينكم عن قضاة فلا أجد غير متهمين! أتريدون أن تجعلوا من أنفسكم قضاة للويس وأنتم خصومه ؟ أتريدون أن تجلسوا مجالس الحكم فى قضية لويس، ولكم فيها رأى يجوب أوربا من أقصاها إلى أقصاها؟

أيظل لويس الرجل الفرنسى الوحيد الذى لا يحميه قانون ، ولا يتبع فى محاكمته إجراء واحد سليم ؟ أيجرد من امتيازاته كملك ومن حقوقه كمواطن ؟ أيخذله القانون حاكماً ويتخلى عنه محكوماً ؟ ألا ما أعجب هذا المصير الذى لا يمكن تصوره ! »

ولقد اجتزت الثورة الفرنسية رءوساً كثيرة لأوهى الأسباب وللأخذ بالظنة ، ولكنها لم تجترئ على الدنو من رأس المحامى ديسيز ، لأن شجاعته فى الحق وجرأته فى الرأى كانتا مضرب الأمثال .

ومن الحق أن نقول إن لغة الخطب القضائية فى العالم العربى قد لقيت من التطور والتقدم ما كان ضرورة لطبائع الزمن والأشياء . فى السنوات الأولى من إنشاء المحاكم الأهلية سنة ١٨٨٣ كانت لغة الدفاع والمرافعات لا تخلو من عبارات ركيكة غثة هابطة إلى الدرك الأسفل من العامية ، من مثل « من حيث ليس » و « كان جارى المشاجرة » و « كون من ذا يتضح » وغيرها . وظل الزمن يدرج بنا فى تقدمه ، حتى رأينا لغة المرافعات تسمو إلى مرتبة من البلاغة والتأنق تصوره لنا هذه الأسطر التالية من دفاع الأستاذ مكرم عبيد عن شفيق منصور فى قضية الاغتيالات السياسية سنة ١٩٢٦ قائلا : « يجب ألا ننسى أن المتهم الذى هو فى السجن نمرة ، هو فى بيته حياة ومحبة . يجب ألا ننسى أن المتهم الذى هو فى نظر النيابة اتهام ، هو فى الوقت نفسه أب وزوج وولد وأخ وصديق . . .

فلا تعجبوا — إذن — يا حضرات المستشارين إذا كلمتكم عن هؤلاء المتهمين كأشخاص وبشر ، فأنتم ولله الحمد لستم قضاة أوراق ، كما وصف حضرة قاضى الإحالة نفسه . أنتم — وإنى لأرتجف من هول ما أنتم — أنتم قضاة نفوس بشرية ، أودع الله مصيرها فى كلمة تخرج من أفواهكم ! فأنتم لسان الله ، وصوت القدر . فاقضوا إذن بيننا وبين شفيق منصور ، ذلك المجرم الذي قضى الله عليه مرات عديدة ، قبل أن يقضى عليه بشر . اقضوا بين ضعفنا وقوة من إذا قال قدر ، فأنتم أقوى وأنتم أقدر . . »

الخطب السياسية والبرلمانية

ليست الخطابة السياسية من منتجات عصرنا الحديث ، ولكنها ضاربة فى القدم إلى ماض بعيد . إنها ترجع إلى الساعات التى نشأت فيها المطامع بين الدول فأراد قويها أن يسود ضعيفها ويفرض عليه سلطانه . وترجع إلى الأيام التى كان فيها فى بعض بلاد العالم القديم أحزاب متباينة الأهداف والمبادئ والوسائل ، فكان لكل حزب خطباؤه المروجون له ، ودعاته المنافحون دونه . وترجع إلى الأزمان التى كان فيها رجل أو قوم يظنون أنهم أحق بالحكم من غيرهم ، فيدعون السيف تارة فيجيب ، ويدعون الخطب تارة فتعينهم على أغراضهم . آه ! لقد جلد «ڤرس» أحد الرومانيين فى عصر شيشرون فاهتزت قلوب الرومان ، واهتزت أعواد المنابر ، وكان شيشرون أجهر الخطباء صوتاً فى الاحتجاج للرومانى المجلود واستنكار ما فعله « ڤرس » ، ولا تزال خطبته يرن صداها فى مسامع الزمان.

وفى الإسلام كان للخطابة السياسية دور لا يقل أهمية عن ذلك الدور الخطير الذى قام به الشعر فى العصر الأموى ، حين قامت العصبية بين الهاشميين والأمويين ، بل كانت خطب أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية ومن بعده من خطباء الأمويين تصويراً للأحداث السياسية الكبرى التى كانت جارية على المسرح الإسلامى حتى ظهور الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

أليست خطب الفتنة فى يوم الجمل ، وخطب يوم صفين ، وخطب التحكيم بين الإمام على ومعاوية ، وخطب الخوارج بما كانت تمثله من الغلو الشديد فى المذهب والفكرة ، وخطب بنى هاشم فى إثبات حقهم ، وخطب الزبيريين ، وخطب ولاة الأمويين — من مثل زياد ، والحجاج ، وقتيبة بن مسلم ، وخالد بن عبد الله القسرى — أليست كل هذه الخطب تعبيراً صريحاً بليغاً عن الصراع السياسى الذى كان قائماً على أشده فى تلك الحقبة من تاريخ الإسلام ؟

ثم جاء العباسيون بعد ذلك فاعتمدوا بجانب السيف على الخطب السياسية يؤيدون بها دعوتهم ، ويثبتون بها أحقيتهم . فالسفاح — أول خلفائهم يخطب — على ما كان فيه من الحياء المفرط والخجل حين يتكلم — ثم يرتج عليه غير مرة ، فيسعفه داود بن على بن عباس . ثم يستقيم الأمر للسفاح فتألفه المنابر حتى يزول ما كان به من حياء مفض إلى الإرتاج . وداود بن على يخطب الناس فى المواسم بمكة وبغيرها ، فيقول فى أول موسم للحج ملكه بنو العباس : « شكراً شكراً ! إنا والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم قصراً . أظنّ عدو الله أن لن نقدر عليه ؟ أن روخِىَ له من خطامه ، حتى عثر فى فضل زمامه ؟ فالآن حيث أخذ القوس باريها ، وعادت النبل إلى النزَعة ، ورجع الملك فى نصابه من أهل بيت النبوة والرحمة . والله لقد كنا نتوجع لكم ونحن فى فرشنا . أمِنَ الأسود والأحمر ! لكم ذمة الله ! لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لكم ذمة العباس ! لا ورب هذه البنية — وأومأ بيده إلى الكعبة — لا نهيج منكم أحداً » .

وأخذ شأن الخطابة السياسية يضعف فى العصر العباسى تبعاً للضعف العام فى أخريات ذلك العصر الذى كان من نتائجه ضعف الملكة ، ونقص المقدرة على الارتجال ، حتى جاء عصر المغول والعصر العثمانى فضعفت الخطابة بوجه عام، حتى الخطب الدينية التى صارت تقليداً على المنابر وترديدا لعبارات محفوظة تقال فى المناسبات الدينية المختلفة ، إلى أن جاءت الثورة العرابية فأطلقت ألسنة من عقالها ، وظهر خطيب كالسيد عبد الله النديم ، كان يرتجل الخطب ارتجالا ، ويمتد به حبل الكلام على المنابر ، لا ينقطع له نفس ، ولا يعيا به قول ، فيؤثر فى السامعين بعذوبة صوته ، وحسن أسلوبه ، حتى لقب بخطيب الثورة العرابية ، كما لقب خطيب الشرق . وبلغ من مقدرته على الخطابة أنه نهض فى حفل حافل بجمعية المقاصد الخيرية يوم ١٣ فبراير سنة ١٨٨٣ فخطب خمس مرات ، لا يكرر فى كل مرة ما قاله فى المرة السابقة ، ولا يقول إلا كلاماً

جديداً ومعانى جديدة ، حتى أدهش السامعين ببلاغته .

ومن الخطباء السياسيين الزعيم الشاب مصطفى كامل ، وسعد زغلول - ولا تزال سجلات الأدب الخطابى تحتفظ لنا بخطبة مصطفى كامل فى الإسكندرية سنة ١٩٠٧ التى كان يرى فيها المستقبل من وراء الغيب ، ويرى استقلال مصر كأنه حقيقة واقعة ، فيقول : « إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ، ونبتهج به ، وندعو له كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون كذلك لا محالة ! فمهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق ، وأعقب الغروب غروب ، فإننا لا نمل ولا نقف فى الطريق ، ولا نقول أبداً : لقد طال الانتظار ! إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها ، وأعلى مطلب ترمى إليه فى مستقبلها ، فلا الدسائس تخيفنا ، ولا التهديدات تقفنا فى طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية » .

وتظهر براعة الخطيب السياسى فى أشد الأزمات وأحرج الساعات ، فهو قادر على أن يحيل اليأس الجاثم إلى أمل يشيع ويشع فى النفوس نوراً وناراً ، كما فعل « تشرشل » رئيس الوزارة الإنجليزية فى الحرب العالمية الثانية ، والدمار يتخطف إنجلترة وحلفاءها من كل جانب ، وكما فعل فى الحرب العالمية الأولى ، حين خطب فى البرلمان الإنجليزى خطبة سياسية يودع فيها منصبه الوزارى ويدافع عن التهم التى وجهت إليه وهو وزير للبحرية فقال : « إن بعض الدول الصغيرة يستهويها ما فى قوة ألمانيا العسكرية من بطش ودقة ، فهى تنبهر باللمعان الخاطف ، وتؤخذ بالحادث العابر - ولكنها عمية عن قوة الشعوب العريقة القوية التى تحارب ألمانيا الآن ! وعن مقدرتها على مصابرة المحن ، وتحمل الخيبة ، وسوء التدبير ، وأن فى وسعها أن تبعث قوتها وتجددها ، وأن تمضى فى الكفاح إلى

غايته بعزيمة لا حد لها ، وفى مواجهة آلام لا سبيل إلى حصرها ، حتى يتحقق لها النصر فى أعظم قضية حارب الإنسان فى سبيلها » .

وكثيراً ما كان سعد زغلول يخطب فى الأزمات الشداد فلا تلين له قناة ، ونذكر له هنا خطابه فى نقابة المحامين حينما وقف موقفاً حازماً من المستر كارتر مكتشف قبر توت عنخ آمون فقال : « إنه ليس له الحق فى أن يأمر بإغلاق المقابر من نفسه ، لأنها ليست ملكاً له ، وإن مصلحة العلم تأبى هذا التصرف ، وإن له أن يرفع ما يشاء من الدعاوى. ولكن الحكومة — رعاية للمصلحة العامة — لها أن تتخذ كل إجراء فيه المحافظة على حقوقها وعلى كرامتها ، وعلى العلم أيضاً . والحكومة مصرة على أن تسير فى هذا السبيل ، لأنه سبيل الحق ، وهو السبيل الموصل لحفظ كرامتها وتعهداتها ، ولرعاية خاطر الجمهور ، ولن تحيد عنه قيد شعرة ، إرضاء لفرد واحد ، يريد أن يتصرف ضد اتفاقاته ، وضد ما يجب عليه للحكومة وللجمهور » .

الخطب البرلمانية

ولقد اقتضى تطور نظم الحكم فى العصور الحديثة قيام مجالس نيابية تمثل فيها طبقات الأمة تمثيلا يكون له حق الإشراف على السلطة التنفيذية القائمة . وصارت هذه المجالس والبرلمانات ميادين رحيبة للكشف عن مقدرة الخطباء من النواب والشيوخ سواء أكانوا مؤيدين أم معارضين . وقد شهدت مجالس فرنسا وإنجلترة النيابية كثيراً من هؤلاء الخطباء الذين لم يغفل تاريخ الآداب ذكرهم ، من أمثال كازيمير بربيه المتوفى سنة ١٨٣٢ ، وفيليل نائب تولوز المتوفى سنة ١٨٥٤ ، ومارتيناك ، وبنيامين كونستانت المتوفى سنة ١٨٣٠ ، ولامارتين الشاعر الخطيب البرلمانى المشهور ، وغامبتا المتوفى سنة ١٨٨٢ . وإذا كان أغلب الخطباء

البرلمانيين غارقين فى السياسة إلى أذقانهم ، ومنغمسين فى الحزبية إلى أبعد ما يتصور من خطيب ، فإن خطيباً برلمانياً مثل لامارتين قد نزع ثوبه الحزبى حينما دخل المجلس وأعلن ذلك فى صراحة . ومن الخطب البرلمانية الشهيرة خطبة لويد جورج التى ألقاها فى مجلس العموم يرفض شروطاً للصلح عرضتها ألمانيا سنة ١٩١٧ ولكنها لم ترق الحكومة الإنجليزية ، قال فيها : « إن انتصار بروسيا يدع المرء فى حمأة من الفظائع ، ويقضى على روح الإنصاف التى يجب أن تسود العالم ، وعلى ذلك الواجب الإنسانى الذى يقضى بحماية الضعيف من القوى ، كما يقضى أيضاً على هذا الشعور الأقوى بأن للعدالة شيئاً ينصرها أسمى من الشره ، وأن انتهاك حرمة المعاملة الحسنة بين الأمم الكبيرة والصغيرة يجر على فاعله من العقاب الصارم المعجل ما لا سبيل إلى درئه . ولهذا لم أتخذ لى هدفاً منذ قيام هذه الحرب غير قصد سياسى واحد جاهدت طويلا فى سبيله ، وهو تخليص الجنس البشرى من أعظم كارثة حلت به . وتوشك أن تقضى على سعادته » .

وقد يحرج الخطيب – البرلمانى إذا كان مسئولا – عن تفسير لفظة « سياسية » فيضطر إلى جلاء الموقف فى لباقة وبلاغة ولطف مدخل ، كما فعل سعد زغلول حين اضطره النواب إلى تفسير كلمة « الأمانى القوية » التى وردت فى خطاب العرش ، وقد اعترض عليها المعارضون لغموضها وإبهامها ، فقال من خطبته : « أريد أن أقول إننا نحن الوزراء لسنا أجانب عنكم ! نحن قسم منكم ، قسم من البرلمان تخصص لتنفيذ أفكاره وآرائه والتعبير عنها ! فهو فى خطبة العرش إنما يعبر عن أفكاركم ، أى أن الوزارة فى خطبة العرش تعبر عن أفكار البرلمان وآرائه ! فإن كانت أحسنت التعبير فبها ونعمت ! وإن لم تكن قد أحسنت التعبير فالبرلمان يرد بما يدل على أنها لم تحسنه . . . هذا الرد قد يكون تعديلا ، وقد يكون تفسيراً ، وقد يكون تأويلا ! كل هذه عبارات معناها أن الوزارة التى تولت وضع هذا الخطاب ، وتولت التعبير عن أفكار البرلمان ، قد أساءت التعبير عنه . فإذا كان

الأمر كذلك فالوزارة التى تخصصت للتعبير عن أفكار البرلمان وتنفيذ آرائه لا يمكنها أن تبقى بعد هذا فى مراكزها ! ».

خطب التكريم والمديح والتهنئة

لم ينفرد الشعر العربى وحده بتكريم المحسن ، ومدح من يستحق المدح ، والإشادة بذكر من يستحق السيادة ونباهة الشأن ، فقد قامت الخطابة بجانبه تتم عمله، وتتولى من أمره ما اتسع لها المجال فيه ـ وإذا كان أرسطو قد تحدث فى أسباب المديح ودواعيه بما ليس هنا مجاله، فإن العرب قد وضعوا للمديح شروطاً لا يجدر بالشاعر أو الخطيب إغفالها من حسابه : أولها وضع المدح فى موضعه، فلا يوصف الكاتب بالشجاعة ، أو القاضى بالحمية ، ولا تمدح الملوك بما يلزمها فعله، كما تمدح العامة من الناس ، وإنما تمدح الملوك بالإغراق والسعة فى العطاء بما لا يتسع غيرهم لبذله ـ والمدح بالصفات المعنوية النفسية أشرف منالا من المدح بالصفات الجسمية ـ وأبقى المدح ما كان صادقاً وإلا ضاع أثره ، وهان على السامعين خطره .

ولا يزعمن زاعم أن خطب المديح وقف على العرب وحدهم ، فلقد اشتهرت فرنسا فى القرن السابع عشر بطائفة من خطباء المدح، كان على رأسهم بوسويه المتوفى سنة ١٧٠٤ الذى اشتهر بخطبه المدحية كما اشتهر بخطب الرثاء والعزاء . ومن خطباء المديح فى الأدب العربى شبيب بن شيبة المنقرى ابن عم خالد بن صفوان « توفى سنة ١٧٠ هـ »، والحسن بن سهل، ويحيى بن أكثم ، ولهذين مدائح فى الخليفة المأمون نذكر منها خطبة لابن سهل يقول فيها : « الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك ، وسنى ما أعطاك ، إذ قسم لك الخلافة ، ووهب لك معها الحجة ، ومكنك بالسلطان ، وحلاّه لك بالعدل ، وأيدك بالظفر ، وشفعه لك بالعفو ، وأوجب لك السعادة ، وقرنها بالسيادة ، فمن فسح

له فى مثل عطية الله لك ؟ أم من ألبسه الله تعالى من زينة المواهب ما ألبسك ؟ أم من ترادفت نعمة الله عليه ترادفها عليك ؟ أم هل حاولها أحد وارتبطها بمثل محاولتك ؟ أم أى حاجة بقيت لرعيتك لم يجدوها عندك ؟ أم أى قيم للإسلام انتهى إلى عنايتك ودرجتك ؟ تعالى الله تعالى ! ما أعظم ما خص القرن الذى أنت ناصره ! وسبحان الله ! أى نعمة طبقت الأرض بك إن أدّى شكرها إلى بارئها والمنعم على العباد بها ؟ إن الله تعالى خلق السماء فى فلكها ضياء يستنير به جميع الخلائق ، فكل جوهر زها حسنه ونوره ، فهل لبسته زينته إلا بما اتصل به من نورك ؟ وكذلك كل ولى من أوليائك ، سعد بأفعاله فى دولتك ، وحسنت صنائعه عند رعيتك ، فإنما نالها بما أيدته من رأيك وتدبيرك ، وأسعدته من حسنك وتقويمك ! » .

أما شبيب بن شيبة فقد كان يجيد الارتجال حتى فى المدائح ، وقد قيل للخليفة إنه يعد الخطب ويستعد لها ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لرجوت أن يفتضح ! فصعد المنبر فقال : « ألا إن لأمير المؤمنين أشباهاً أربعة : الأسد الخادر ، والبحر الزاخر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر . فأما الأسد الخادر فأشبهَ منه صولته ومضاءه ، وأما البحر الزاخر ، فأشبه منه جودَه وعطاءه ، وأما القمر الباهر فأشبه منه نوره وضياءه ، وأما الربيع الناضر فأشبه منه حسنه وبهاءه ! ثم نزل وهو يقول :

وموقف مثل حد السيف قمت به	أحمى الذمار وترمينى به الحدق
فما زلقت وما ألقيت كاذبة	إذا الرجال على أمثاله زلقوا ..! »

وهو هنا يمدح الخليفة ويمدح نفسه بأنه يقوم فى المواقف ، ولا يمدح الرجال إلا بما هو فيهم .

أما خطب التكريم والحفاوة فقد عرفها العرب كما عرفها الفرنجة ، فإذا كان

منتصف القرن الماضى قد شهد تكريم البرلمان الأمريكى للزعيم الخطيب المجرى كوشوت الذى بهر السامعين بفصاحته ، فإن المنبر العربى منذ ألف عام أو تزيد قد شهد تكريم الخليفة عبد الرحمن الناصر لوفد قسطنطين ملك الروم سنة ٣٣٨هـ . وقد وقف منذر بن سعيد القاضى — بعد أن أرتج على الخطباء ومنهم أبو على القالى صاحب « الأمالى » — فارتجل خطبة كان الكلام فيها يسحُّه سحا ، كأنما كان أعدها من قبل ، فمدح الخلافة والخليفة والمسلمين بما فتح الله عليهم ، حتى « صارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق ، وبلد سحيق ، لأخذ حبل بينه وبينكم ، جملة وتفصيلا » .

ولقد استوجبت مقتضيات المجتمع فى عصرنا الحديث قيام حفلات لتكريم النابهين المبرزين فى ناحية من النواحى ، وهنا تقوم الخطابة بجانب الشعر تؤدى حق العظيم ، بما يستحقه من ثناء وتكريم .

وكثيراً ما شهدت المنابر مواقف الخطباء المهنئين فى المناسبات السعيدة ، والمقامات المحمودة . ويحضرنا فى هذا المقام تهنئة وفود العرب لسيف بن ذى يزن حين استرد ملكه من الحبشة ، فقد وقف عبد المطلب بن هاشم — جد النبى عليه السلام — يهنئ الملك العربى قائلا : « إن الله تعالى — أيها الملك — أحلك محلا رفيعاً ، صعباً منيعاً ، باذخاً شامخاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، فى أكرم معدن ، وأطيب موطن . فأنت — أبيت اللعن — رأس العرب وربيعها الذى به تخصب ، وملكها الذى به تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى إليه يلجأ العباد . سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف . ولن يهلك من أنت خلفه ، ولن يخمل من أنت سلفه . نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته ، وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجك بكشف الكرب الذى فدحنا ، فنحن وفد التهنئة ، لا وفد المرزئة » .

ويظهر أنه كان لمحافل التهنئة وخطبها مراسم موضوعة ، وتقاليد معروفة ، فلا يجترئ عليها كل من يود الكلام فى كل ناد ، ولا يقوم بها من لا يؤذن له بالحديث . فقد رووا أن عبد الرحمن الداخل لما فتح مدينة سرقسطة بعد ثورة ثائرها الحسين الأنصارى ، قام أحد من لا يؤبه به من الجند يهنئه بصوت عال ، فقال له عبد الرحمن : « والله لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ علىّ فيه النعمة من هو فوق ، فأوجبَ علىّ ذلك أن أنعم فيه على من هو دونى ، لأصليتك ما تعرضت له من سوء النكال ! من تكون ؟ حتى تقبل مهنئاً رافعاً صوتك ، غير متلجلج ولا متهيب لمكان الإمارة ، ولا عارف بقيمتها ، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك ؟ وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها ، فلا تجد مثل هذا الشافع فى مثلها من عقوبة ! » .

ومن أدق مواقف التهنئة أن يهنأ خليفة جديد عقب وفاة سلفه ، فيحار الخطيب ، كما يحار الشاعر كيف يجمع بين التهنئة والتعزية فى مقام واحد . إلا من رزق البديهة الحاضرة ، والبراعة المسعفة ، واللباقة المواتية . كما صنع عبد الله ابن همّام السلولى حين وفاة معاوية واستخلاف ابنه يزيد ، فلم يقدر الناس على أن يجمعوا بين التهنئة والتعزية أمام يزيد ، فقام ابن همام يقول : « يا أمير المؤمنين ! آجرك الله على الرزية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رُزئتَ عظيما ، وأعطيت جسيما ، فاشكر الله على ما أعطيت ، واصبر له على ما رزيت ، فقد فقدت خليفة الله ، ومنحت خلافة الله ، ففارقت جليلا ، ووهبت جزيلا ، إذ قضى معاوية نحبه ، فغفر الله ذنبه ! ووليت الرياسة ، فأعطيت السياسة ، فأوردك الله موارد السرور ، ووفقك لصالح الأمور . . . » .

وتذكر كتب الأدب أن عبد الله بن همام هذا هو أول من فتح للناس باب الجمع بين التهنئة والتعزية .

خطب الرثاء والعزاء

لقد اشتركت الخطابة فى نواح كثيرة من الحياة كما رأينا ، فلم لا تشترك فى الشعور إزاء حادث الموت الرهيب، بالتفجع على الميت أو ذكر محاسنه، أو تعزية أهله أو قبيلته أو أمته فيه ؟ وكيف لا يحسن التعزية من يحسن التهنئة ؟ وكيف يصمت الخطيب فى موقف الفراق الأبدى، وهو يملك من أداة الكلام ما لا يجمل الصمت معه ؟

لقد رأينا الخطابة من أقدم الأزمان تضيف إلى أوتار القول وتراً حزيناً باكياً معيناً على الدموع أو معيناً على الصبر، حين لا يكون من الصبر بد . . ألم يقف «بركليس» الخطيب اليونانى فى القرن الخامس قبل الميلاد يرثى الجنود الذين استشهدوا فى حرب البلوبونيز سنة ٤٣١ ؟ ألم يقف «بوسويه» الخطيب الفرنسى فى القرن السابع عشر يرثى « أمير كونده » وقائد جيشها رثاء مؤثراً حاراً ؟ ألم يقف «مازينى» الزعيم الإيطالى المشهور فى مدينة ميلانو سنة ١٨٤٨ ليرثى شهداء كونستانزا الذين قتلهم أعداؤهم فى سبيل تحرير بلادهم ؟ ألم يرث «لانجرسول» الخطيب الإنجليزى المشهور فى القرن الماضى أخاه مرثية تفيض بالإذعان للأقدار، على الرغم مما كان عند الرجل من ميل إلى الإلحاد ؟

فخطب الرثاء والعزاء كالشعر، تسعد النفوس وتعينها على السلوان أمام الأحزان ، وتذكر من محاسن المرثى ما تردده مسامع الأزمان .

ولقد أثرت فى الأدب العربى خطب رثاء وعزاء كثيرة تمثل لنا فى تطورها تطور هذا اللون من الخطابة على مر العصور . ومن أرق خطب الرثاء وأكثرها امتلاء بالشجو والفجيعة خطبة عائشة رضى الله عنها حين وقفت على قبر أبيها أبى بكر الصديق ترثيه قائلة : « نضر الله وجهك يا أبت ! وشكر لك صالح سعيك، فلقد كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها . ولئن كان

أجلّ الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك ، وأعظم المصائب بعده فقدك ، إن كتاب الله ليعدُ بحسن الصبر فيك ، حسنَ العوض منك ، وأنا أستنجز موعود الله تعالى بالصبر فيك ، وأستقضيه بالاستغفار لك . أما لئن قاموا بأمر الدنيا لقد قمتَ بأمر الدين ، لما وهى شعبه ، وتفاقم صدْعه ، ورجفت جوانبه . فعليك سلام الله ! توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك »

فهنا سيدة تبكى أباها ودعامتها ، ولكنها تمتثل لقضاء الله امتثال الصابر ، وتذكر من محاسن الصديق رضى الله عنه ما تتعطر بذكره المنابر .

وفى الأسطر التالية نرى أخا يرثى أخاه ويندبه ندباً مرا على وجازته ، حين وقف الحسين على قبر أخيه الحسن عليهما السلام يقول : « رحمك الله أبا محمد ! إن كنت لتناصر الحق مظانه ، وتؤثر الله عند تداحض الباطل ، فى مواطن التقية ، بحسن الروية ، وتستشف جليل معاظم الدنيا بعين لها حاقرة ، وتفيض عليها يداً طاهرة الأطراف ، نقية الأسرّة[١] ، وتردع بادرة غرب أعدائك ، بأيسر المئونة عليك ، ولا غرو وأنت ابن سلالة النبوة ، ورضيع لبان الحكمة . فإلى روح وريحان وجنة ونعيم ! أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه ، ووهب لنا ولكم السلوة وحسن الأسى عنه » .

ولقد وقف محمد بن الحنفية أخو الحسن أيضاً يرثيه على قبره، وقد اغرورقت عيناه بالدموع فقال : « رحمك الله يا أبا محمد ! فلئن عزت حياتك ، لقد هدّت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمنه كفنك . وكيف لا تكون كذلك ؟ وأنت سليل الهدى ، وخامس أصحاب الكساء[٢] ! وخلف أهل التقوى ، وجدك النبى المصطفى ، وأبوك على المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء ، وعمك جعفر الطيار[٣] فى جنة المأوى . وغذتك أكف

---

(١) الأسرة : جمع سرار مثل كتاب . وهى الخطوط التى تبدو فى ظاهر اليد والجبهة .

(٢) أصحاب الكساء : هم النبى عليه السلام وعلى وفاطمة والحسن والحسين .

(٣) جعفر الطيار : هو ابن أبى طالب استشهد فى غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة .

الحق ، وربيت فى حجر الإسلام ، ورضعت ثدى الإيمان ، فطبت حياً وميتاً ! فلئن كانت الأنفس غير طيبة لفراقك إنها غير شاكة أن قد خير لك[1] ، وإنك وأخاك لسيدا شباب أهل الجنة ! فعليك أبا محمد منا السلام ! »

وإذا كنا رأينا قبل سطور السيدة عائشة تؤبن والدها أبا بكر ، فإننا نرى فى العصر الأموى الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز يقف على قبر ابنه بعد أن سوى عليه قبره بالأرض فيخطب قائلا : « رحمك الله يا بنى ! فقد كنت براً بأبيك ، والله ما زلتُ مذ وهبك الله لى بك مسروراً ، ولا والله ما كنت قط أشد سروراً بك ، ولا أرجى لحظى من الله فيك ، منذ وضعتك فى الموضع الذى صيرك الله إليه ! فغفر الله لك ذنبك ، وجازاك بأحسن عملك ، وتجاوز عن سيئاتك ، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير ، من شاهد أو غائب . رضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره . والحمد لله رب العالمين » .

ولعل من أفجع مواقف الخطب الرثائية موقف الحجاج حين أتاه بريد من اليمن بوفاة ولده محمد وأخيه فى يوم واحد ، لقد فرح أهل العراق لهذا الحادث وقالوا : انقطع ظهر الحجاج وهيض جناحه ! ولكن الرجل الحديدى صعد المنبر ثم خطب الناس قائلا : « أيها الناس ! محمدان فى يوم واحد ؟ ! أما والله ما كنت أحب أنهما معى فى الحياة الدنيا ، لما أرجو من ثواب الله لهما فى الآخرة . وايم الله ! ليوشكن الباقى منكم ومنى أن يفنى ، والجديد أن يبلى ، والحى منى ومنكم أن يموت ، وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها ، فتأكل من لحومنا ، وتشرب من دمائنا ، كما مشينا على ظهرها ، وأكلنا من ثمارها ، وشربنا من مائها . . . »

---

(١) خير لك : أى جعل الله لك الخير .

إن فى الندب والرثاء أنغاماً حزينة باكية ، وأصداء لقلوب حطمها المصاب، أما العزاء ففيه من الحث على الصبر ، والتسلى عن حادث الدهر ما تعرضه لنا مثل خطبة شبيب بن شيبة فى تعزية الخليفة المهدى العباسى بابنته « البانوقة » وكان يحبها حبًّا شديداً ، قال : « أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزئت أجراً، وأعقبك صبراً ، ولا أجهد الله بلاءك بنقمة ، ولا نزع منك نعمة . ثواب الله خير لك منها ، ورحمة الله خير لها منك . وأحق ما صُبر عليه ، ما لا سبيل إلى رده » . وقد أجمع الناس على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من هذه التعزية .

والحق أننا حين نعرض خطب الرثاء والعزاء فى الأدب العربى نراها تميل إلى الإيجاز ، وتجانب الطول ، وتؤثر التأثير البالغ ، وأنها لم تعمد إلى الطول إلا فى عصرنا الحديث، حين أتاحت حفلات التأبين للخطباء أن يطيلوا ، وأن يستعرضوا من جوانب المرثى ما لا تضيق به فُسح المنابر . . .

الخطب الاجتماعية

لم تؤد الخطابة العربية فى العصر الجاهلى وفيما بعده من عصور الإسلام والدول المتعاقبة، إلى عصر النهضة الحديثة ، رسالتها فى خدمة المجتمع ،والمشاركة فى حل مشكلاته وتوجيهه وجهة اجتماعية مبنية على الدراسات الاجتماعية ، ومعالجة عيوب المجتمع معالجة تجمع بين الدراسة والتأثير . والحق أن الخطب الاجتماعية هى وليدة الدراسات الاجتماعية المتأخرة التى لم يكن لها وجود قبل القرن التاسع عشر . فلما استقامت علوم الاجتماع ودراسة المشكلات ،وقام الباحثون الاجتماعيون بإيجاد الحلول السليمة لمعالجة النقص فى المجتمع القائم دفعاً به إلى الكمال المنشود ، قامت الخطابة تساعد المصلحين الاجتماعيين فى أداء رسالتهم ، وأرادت أن تستكمل – بعدة البلاغة والتأثير – ما قد يفوت المفكر الاجتماعى حين

يعرض الحلول فى عبارات جافة أو فى لغة علمية لا تجد سبيلها إلى القلوب كما تجده الخطبة البليغة .

وهدف الخطب الاجتماعية أن تنشد الخير والسعادة والكمال لمجتمع قد تلوثه الشرور . وفى نطاق هذا المفهوم وضع أرسطو دستوراً للخطابة حين أوجب على الخطيب أن يعرف ماهية السعادة والفضيلة والشرف وغيرها من المعانى التى تعين على إيجاد مواطن يحيا حياة هادئة، أمينة، قوية، جميلة .

والخطيب الاجتماعى يعرف أدواء عصره وعيوب مجتمعه، ويعرف أسبابها، ويتوقع النتائج الخطيرة التى تؤدى إليها، فيدل الناس عليها ليجتنبوها، وقاية لمجتمعهم أن يلحقه من الفساد ما لا يوده المواطن الصحيح .

والخطيب الاجتماعى حين يؤمن بالفكرة وتستقر عقيدة فى نفسه ، ومعنى قائماً فى وعيه، فإنه لا ينفك يدعو إليها ، ويحتال عليها فى كل مجال حتى ينتصر فى النهاية ويبلغ من هدفه القصد . كما كان «لنكولن» الأمريكى يحارب الرق قولا وفعلا ، وله فى ذلك خطب كثيرة ، وكما كان «ولبر فورس» الإنجليزى يكافح حركة تجارة الرقيق مكافحة لم ينم عنها لحظة من حياته ، حتى انتهى بأن ألغى البرلمان الإنجليزى الرق سنة ١٨٠٧ . ولقد لاقى ولبرفورس كثيراً من معارضات الخصوم الذين لا يجدون حرجاً أن يكون بعض الناس عبيداً لبعض ، ولكنه دخل من باب الحق والعدالة والرحمة والعاطفة إلى قلوب هؤلاء المعارضين، فكسب القضية بنجاح كبير .

وليس ببعيد أن يجمع خطيب بين نوعين أو أكثر من الخطابة ، فقد كان الزعيم الشاب مصطفى كامل خطيباً سياسيًّا وطنيًّا، كما كان فى الوقت نفسه خطيباً اجتماعيا ملحوظ المكان ، جهير الصوت ، مسموع الكلمة . وصوته من أول الأصوات العربية التى ارتفعت فى الشرق العربى لأصلاح المجتمع ، كما ارتفع صوته للتحرر من قيود الاستعمار الأوربى البغيض . ومن الإنصاف له

ونحن نتحدث عن الخطب الاجتماعية أن نشير إلى خطبته سنة ١٩٠١ فى افتتاح مدرسة الشوربجى بالبحيرة، ففيها وعى حقيقى لقيمة العلم والتعليم فى بناء النهضات، وإثبات حيوية الشعوب وحياتها، وفى هذه الخطبة يقول: «ليس فى تشييد المدارس وإقامة المستشفيات، والتنافس فى الخيرات النافعة، شىء يسر الوطن ويشرح صدره مثل نفى تهمة الموت الأدبى عن المصريين. قال القائلون، وردد المرددون: إن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا. وسرت هذه الكلمة فى الأمة، وتناقلها الصغير عن الكبير، وشرحها فلاسفة السوء، واعتقد الكثيرون صحتها، حتى أخذ القوم يتساءلون عن مبلغ هذه الأمة من القوة والحياة، يتساءلون هل هى إلى المجد والارتقاء سائرة؟ أم إلى الموت والفناء هاوية؟ فأجبهم يا من رفعت للعلم والوطن مناراً عالياً، أجبهم بأن المصريين اتفقوا على أن يتفقوا! وأن جمعية العروة الوثقى فى الإسكندرية، وجمعية المساعى المشكورة فى المنوفية، والجمعية الخيرية الإسلامية فى أنحاء القطر، تنادى بأن فى الأمة رجالا أحياء ذوى همم عالية، وعزائم صادقة. أجبهم بأن هذه المدارس الأهلية التى أنشئت فى الديار بهمم الأفراد هى الحجج الدامغة على حياة الأمة، ووجود من يهتم لأمر تقدمها ونهضتها».

وحين ينتشر مرض اجتماعى خطير فإنه يجد له فى بلاغة الخطباء دواء وشفاء. فلقد كان «التعصب» نغمة مرذولة فى القرن التاسع عشر، وهو داء وبيل تأباه سماحة الإسلام ورحمة المسيحية. وهنا وجدنا أديباً خطيباً مثل «أديب إسحاق» يخطب فى جمعية زهرة الآداب خطبة تدور حول التعصب والتسامح قال فيها: «فالذين يلتمسون الزلفى إلى الله بالوعيد والتهويل، والذين لا يريدون أن يُعبد إلا كما يريدون، والذين يحاولون رسم آرائهم فى القلوب والجباه بالحديد والنار — كل هؤلاء يغضبون الله، ويكفرون بالحق ولا يشعرون. فإن الحقيقة ليست بأجنبية، ولا بعدوة لتلقى على كاهل المرء إلزاماً، وإنما نحن

ضيوفها بالطبع ، فهى تقبل علينا ، وتقف لدينا ، لنطلبها عن رضى راغبين » .

وختم الخطيب الاجتماعى البليغ خطبته بهذه الدعوات البليغة إلى الله : « . . . فتستوى عبادتك برطانة من لسان قديم مهجور ، وبغيرها من لسان جديد مشهور . ولا يميز بين من يوقد الشمع نهاراً لدعائك ، ومن يكتفى فيه بضياء سمائك ، وبين من يلبس لذلك الذهب والحرير ، ومن يستقبل سماءك بأطمار الفقير . . . »

ومن الخطباء الاجتماعيين فى الشرق العربى الحديث أمين الريحانى ، ونقولا فياض ، وميخائيل نعيمة ، والآنسة مى ، وغيرهم ، ولكل منهم فى الخطابة مقام محمود ، وقد جمعت أكثر خطبهم فى كتب تحمل أسماءهم ، « كالريحانيات » لأمين الريحانى ، « وعلى المنبر » لفياض ، « وزاد المعاد» لنعيمة ، « وكلمات وإشارات » للآنسة مى .

ومن خطب ميخائيل نعيمة الاجتماعية خطبته التى ألقاها إثر عودته من أمريكا سنة ١٩٣٢ بعد غربة عشرين عاماً ، وفيها يقول : « ما أبعد السلام المخيم فى جبالكم – يعنى جبال لبنان – عن الجلبة المعسكرة فى مدينة كمدينة نيويورك ! فعلام تصرون على تزويج سلامكم من تلك الجلبة ؟ سلامكم هو أنفاس العزة القدسية المنبعثة فى صخوركم وترابكم وأعشابكم . وتلك الجلبة هى تطاحن المطامع والأهواء البشرية فى سبيل « الريال » . والاثنان لا يتزاوجان ، ولن يتزاوجا ! وليس أضل ممن يعتقد أن بإمكانه التوفيق بين ريال نيويورك وسلام صنين [1] . فريال نيويورك نقاب كثيف يحجب وجه الله ! وصنين عرش من طهارة يبدو عليه وجه الله سافراً ! من اختار منكم ريال المهجر وكل ما فى قلبه من جلبة لا تستكن ، فليطلق سلام صنين ! »

ومن خطب المرحومة الآنسة مى الخطيبة الاجتماعية خطبتها فى إحدى الجمعيات الخيرية سنة ١٩١٨ بعنوان « الإخاء » : « إن كلمة الإخاء التى ينادى بها دعاة

(١) صنين : قمة جبل شهيرة تتوسط سلسلة جبال لبنان .

الإنسانية فى عصرنا ليست ابنة اليوم فحسب ، بل هى ابنة جميع العصور ، وقد برزت إلى الوجود منذ شعر الإنسان بأن بينه وبين الآخرين اشتراكاً فى فكرة أو عاطفة أو منفعة، وبأنهم يشبهونه رغبات ، واحتياجات ،وميولا ـ يجب أن يتألم المرء ليدرك عذوبة الحنان ! يجب أن يحتاج إلى الآخرين ليعلم كم يحتاج غيره إليه ! يجب أن يرى حقوقه مهضومة يزدري بها ليفهم أن حقوق الغير مقدسة يجب احترامها ـ يجب أن يرى نفسه وحيداً ، ملتاعاً ، دامى الجراح ، ليعرف نفسه أولا ، ثم يعرف غيره ، فيستخرج من هذا التعارف العميق معنى التعاون والتعاضد . كذلك ارتقى معنى الإخاء بارتقاء الإنسان » .

الخطب العلمية

من استكمال البحث فى موضوع الخطابة أن نلم إلمامة سريعة قصيرة بالخطب العلمية ، وهى خطب تلقى على منابر العلم والبحث ، وتمتاز بأن مستمعيها أقل عدداً ، وأوسع ثقافة من مستمعى أنواع الخطب الأخرى ـ كما تمتاز بأن عنصر الإقناع والتدليل فيها هو الطابع الذى يسودها ، لأنها لا تخاطب الجماهير ، ولا تستميل العواطف ، وإنما تخاطب العقول ، وتناقش بالمنطق ، وتجادل بالحجة ، وتقنع بالبراهين ـ ولكنها لا تخلو عند خطباء العلم الناجحين من التأنق العبارى ، والبلاغة الدقيقة التى توائم الدقة العلمية ، كما لا تخلو من جمال الصوغ وسلاسة الأسلوب، اللذين لا يخرجان بحقائق العلم عن ضبط الفكرة ، وتحديد الرأى .

وفى الأدب العربى مجموعة من الخطب العلمية الدقيقة ترجمت عن الإنجليزية بقلم الدكتور يعقوب صروف منشىء « المقتطف » نضر الله أيامها ! وهى تدلنا — على كل حال — على الأسلوب الذى يجرى عليه الخطباء حين يتكلمون من

فوق المنابر فى مسائل العلوم . وهو أسلوب إذا جمع إلى الدقة والضبط وتنسيق المعانى وترتيبها الوضوحَ والبلاغة ترك فى نفوس السامعين أطيب الآثار ، كما صنع الأستاذ «فوستر» فى خطبته حين كان رئيساً لمجمع « تقدم العلوم البريطانى » الذى التأم بمدينة دوفر سنة ١٨٩٩ ، وكما صنع غيره من رؤساء هذا المجمع فى خطبهم العلمية التى ضمها كتاب « العلم والعمران » الذى يمثل لنا الخطابة العلمية فى أحسن معارضها .

على أن المجامع العلمية — لا اللغوية — فى بعض البلاد العربية قد حفلت بطائفة من الخطب والمحاضرات العلمية ، التى ترتفع فى دقتها وأصالتها وحسن عرضها إلى مستوى لا يقل عن المستوى الذى بلغته الخطب العلمية فى البلاد الأجنبية . وفى هذا أكبر الدليل على أن اللغة العربية لا تضيق بالعلم الحديث ، ولا بالتعبير عنه فى دقة وضبط ، كما قال الشاعر محمد حافظ إبراهيم على لسانها :

وسعت كتاب الله لفظاً وغايــة   وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة   وتنسيق أسمــاء لمخترعــات ؟

ومن أمثلة هذه الخطب والمحاضرات العلمية تلك التى ألقيت فى المؤتمرات السنوية « للمجمع المصرى للثقافة العلمية » وقد ضمتها كتب أصدرها المجمع كل عام ، منذ إنشائه فى أول العقد الثالث من القرن العشرين ، وفيها من لذة المطالعات العلمية ما يجدر الرجوع إليه للتزود بزاد علمى دقيق أخرجته البلاغة فى أجمل الأثواب .

محمد عبد الغنى حسن

فهرس

صفحة

تم طبع هذا الكتاب على مطابع

دار المعارف بمصر

نوفمبر سنة ١٩٥٥